

رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة

(٩)

الوحدة الإسلامية

في مواجهة التحديات المعاصرة

تأليف

أ.د/ محمد عبد العليم العدوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لمعالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا بوحدتها، بل إن فكرة الأمة نفسها تنطوى على تجمع سكان على أرض واحدة ويرتبطون بعقيدة واحدة ويتحدثون لغة واحدة ولهم رسالة واحدة يوجهونها إلى العالم ، ولم تتوافر لأى أمة من الأمم مثلما توافر للأمة الإسلامية من مقومات الوحدة المتمثلة في وحدة الأصل والدين واللغة.

ويسر رابطة الجامعات الإسلامية فى سعيها الحثيث نحو تنبيه الأمة إلى عوامل تقدمها وأسس نهضتها، أن تقدم هذه الدراسة عن الوحدة الإسلامية فى مواجهة تحديات العصر .

هذه الدراسة التى كلفت بها الرابطة أحد علماء المسلمين، عالم التاريخ الأزهري المرموق الدكتور **محمد عبد العليم العدوى**، وهى دراسة تعتمد على القرآن والسنة ، وتحيط بالتاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر.

لقد تعمق الدكتور العدوى فى آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى العظيم صلى الله عليه وسلم واستخراج منها ما يرتبط فيها بوحدة المسلمين، وشرح فى لغة واضحة وبأسلوب علمى قوى ما تدل عليه هذه الآيات وما توجبه على المسلمين فى الزمن الذي نعيش فيه . كما اهتم الدكتور العدوى بإبراز معوقات الوحدة، وهو درس مهم يجب أن ينتبه إليه كل من يتصدى للدراسات الخاصة بالوحدة، وأهمية هذا الدرس تكمن فى استنهاض الأمة إلى العوامل الداخلية التى تحول دون وحدتها، وضرورة أن تواجهها لكى تكمل

البنـــيان الداخلــــي وتقويــــه، ثم تواجه العوامل الخارجية وهى عوامل مؤثرة وغالبة ولا يمكن أن تواجه إلا بتكامل الإرادة ووحدة العمل .

إن الإســـلام يدعو معتنقيه إلى الوحدة وإلى التمسك بأهدابها، بل يأمرنا بها ويجعلها طوق النجاة لنا من الوقوع فى ظلمات الضلال والجهل والفتنة . يقول سبحانه وتعالى " **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شـــفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** " (آل عمران: ١٠٣) .

كمـــا أن رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قد دعا إلي الوحدة بقوة وأمضــــى معظم حياته يدافع عنها ولم يدخر جهدا فى الزود عنها وظل يواجه كافـــة الضربات التى توجه إليها بنفسه . لقد وقف أمام محاولات الوقيعة بين المســـلمين مـــن قبل بعض اليهود حتى قضى على فتنة أوشكت أن تعمهم بعد حسد من اليهود على توحدهم. وعانى كثيرا من جانب بعض المسلمين عندما لـــم يرضــــهم تقسيم الغنائم، وكان من أهدافه الكبرى أن يقضى على عوامل الفرقة والعصبية والجهالة التى كانت تسيطر على العرب قبل أن يبعث إليهم , لقـــد صار الإسلام أمة والعرب دولة يهاب جانبها ويخشى أثرها بعد أن كانوا قبائل متفرقة، وجماعات شتى، ولا تربطهم وحدة فكر، ولا رابط مشترك .

إن رابطـــة الجامعات الإسلامية تأمل أن يكون للدراسات التى تقدمها عن وحدة المسلمين أثرها فى تمكين الأمة الإسلامية من مواجهة ما يحيط بها مـــن مشـــكلات، ومـــا يحاك لها من أعدائها، وما يعترض مسيرة تقدمها من عوائق.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تقديم

للأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

عبر الله سبحانه وتعالى عن وحدة المسلمين فى العديد من آيات القرآن الكـريم، واعتبرها سفينة النجاة لهم من الفرقة والضياع يقول سبحانه وتعالى "**إن هـذه أمـتكم أمـة واحـدة وأنـا ربكم فاعبدون**" (الأنبياء:٩٢) كما يقول "**واعتصـموا بحـبل الله جمـيعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**" (آل عمرن:١٠٣).

وقـد كشفت الدراسات التى قامت بها رابطة الجامعات الإسلامية فى نهاية القرن الماضى عن التحديات التى تواجه الأمة فى القرن المقبل، أن أول هـذه الـتحديات هـو تحدى الفرقة والتشرزم أو بعبارة أخرى تحدى غياب الوحدة، هذا المطلب الذي توجبه الشريعة وتحض عليه، وتطالب المسلمين بأن يعضوا عليه بالنواجز .

أقـول إن هذه الدراسات أظهرت أن غياب كافة أشكال الوحدة والتكتل علـى خـريطة الدول الإسلامية تعد ظاهرة غريبة فى العصر الحاضر لأن العصـر الـذي نحـياه لا يعترف بغير الوحدات الكبرى، ولا يأبه بالوحدات الصـغرى، ولا شـك أن تتـبع التاريخ العربى الإسلامي المعاصر يرينا أن الاسـتعمار نجـح فـى تقطيع أوصال العالم الإسلامي، وبدلا من أن تحتويه إمبراطورية كبرى، صار وحدات تأخذ الشكل القومى للدولة الأوربية الحديثة، وكانت المؤامرات دائما وراء أي تجمع يحاول أن يعيد الوحدة أو أي شكل من أشكال التكتل .

لقــد ظهرت أمام المخاطر الحالية التى تحيط بالعالم الإسلامي بعض التنظيمات الإقليمية وأهمها الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، ولكن ممـــا يؤســف له أنهـــا منظمات ولدت ضعيفة وعبرت عن عوامل وعناصر واتجاهـــات للـــتفرق بـــدل التوحد ، ويكفى أن قرارات مجلس جامعة الدول العربـــية تصـــدر بالإجمـــاع وقـــرارات الأغلبية لا تلزم إلا من وافق عليها، والأنكـــى من ذلك أن أغلب القرارات لا تنفذ، لاسيما التى تعبر عن اتجاهات للـتوحد، لقــد صدرت قرارات بإنشاء سوق عربية مشتركة وسوق إسلامية مشـــتركة وديـــنار إسلامي، ووحدة اقتصادية عربية لكن هذه القرارات لم تر النور ولم ينفذ منها إلا أقل القليل .

وفـــي ظل التطورات التى يمر بها العالم الآن نرى أنه لا بديل للأمة الإســـلامية عـــن الوحـــدة والتى يمكن أن تبدأ ببعض التكتلات الاقتصادية ، لمواجهـــة الـــتحديات التى تواجهها، إن أمامنا تحديا يتصل بالإنتاج الزراعى ســـببه أن العالم الإسلامي يستورد ٨٠% من غذائه رغم توافر كافة مقومات الإنـــتاج الـــزراعى فى دولـــه. فلدينا ملايين الأفدنة من الأراضي الصالحة للـــزراعة فى السودان وتشاد والسنغال . ولدينا رؤوس الأموال الحائرة الآن بســـبب عـــدم وجود مقر آمن ينتشلها ويوظفها . كما لدينا فائضا ضخما فى الأيدي العاملة فى كافة المجالات بما فيها المجال الزراعى .

ولكـــن إرادة الـــتوحد والجمـــع بين هذه العناصر غائبة . لدينا تحديا ضـــخما فـــى إنـــتاج الدواء الذي ترتفع أسعاره يوماً بعد يوم، ونجد شركات وجدت فى النطاق العربى الإسلامي ولكنها لم تتجمع بيد يمكن أن تحيلها إلى قوة إنتاج للأمة، بسبب غياب العزيمة على العمل لتصنيع الدواء على مستوى العـــالم الإســـلامي أو حـــتى العـــربى أولا، فمطلوب شركة ضخمة تفاوض

الشـــركات الكـــبرى الوحيدة فى العالم كقوة تأخذ تسهيلات على قدر قيمتها، وتحـــيى الطـــب العـــربي الإســـلامي، وتوزع منتجاتها على كل بلدان العالم الإسلامي .

ونفـــس الوضـــع فـــى المجال الإعلامي , رغم خطورته البالغة علينا وعلى ثقافتنا وفكرنا، فلم توجد الشركة الكبرى التى تملك قدرات ضخمة على الإنتاج والمنافسة والتى تصنع استراتيجية إعلامية واضحة تعبر عن القضايا والمشكلات بل الآمال والأحلام .

لديـــنا كذلـــك تحديـــات ضخمة فى مجال التصنيع والتصنيع التقليدى للمنـــتجات الزراعـــية كالقطـــن الذى بعد أن كنا متفوقين فيه، صرنا فى زيل الـــدول المنـــتجة له . ولدينا تحديات ضخمة فى التعبير عن الهوية الإسلامية والذاتية الإسلامية لا يمكن أن تتم إلا بالتوحد .

إن رابطـــة الجامعات الإسلامية تقدر أهمية هذه التحديات وتستنهض إرادة الأمـــة إلـــى العمـــل بجد على مواجهتها ، ولا سبيل لذلك إلا بالاقتناع بـــالوحدة كضرورة حياة ، وبالتكتل كوسيلة تكتيكية لبلوغ الهدف . لذا كلفت الـــرابطة أحـــد كبار الأساتذة ، وهو الأستاذ الدكتور محمد عبد العليم العدوى الأســـتاذ بكلـــية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر ، وهو يجمع بين الإلمام الواســـع بالثقافة الإسلامية؛ إذ هو أزهري درس فى الأزهر ودَرَّس فيه، وبين الإلمـــام الدقيق بالتاريخ الإسلامي؛ إذ هو أستاذ للتاريخ، الإسلامي على وجه الخصـــوص بكتابة مؤلف عن الوحدة فى مواجهة التحديات المعاصرة . وهو مؤلـــف يستخرج من الآيات والأحاديث عوامل الوحدة ويتحدث عن معوقاتها، ويوضح بجلاء الضرورات التى تستوجبها الآن . إن كتاب سيادته من الكتب الـــتى تضـــع الأسس للوحدة وتعتمد اعتمادا كاملا ، ليس على القرآن والسنة

فحســب ، وإنمــا علــى أحداث ووقائع التاريخ . إنها دراسة متبصرة واعية تساعد كل من يبحث فى نهضة وتقدم المسلمين، والمستقبل الواعد لهذه الأمة إذا ما استوعبت دروس التاريخ ووعت أسباب التقدم لذا فان الرابطة تضع هذا الكتاب فى سلسلة فكر المواجهة لأن من أكبر ما نواجه به التحديات المعاصرة هو وحدة المسلمين , وسنتبع ذلك بدراسات أخرى بإذن الله تبين أهمية الوحدة فى كل مجال خاصة فى المجال الاقتصادى والثقافى والاجتماعى .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، مبشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبعد:

فما أحوج المسلمين – اليوم – إلى الاعتصام بِحبل الله المتين، واتِّباع صراطه المستقيم، ليعود إليهم – بفضل الله – مجدهم التليد، وعزَّهم المجيد، في ظلٍ وحدة إسلامية قوية الأركان، ثابتة الدعائم، لا تحركها العواصف، ولا تهزها القواصف، أساسها العقيدة الصحيحة – عقيدة التوحيد الخالص – وأغصانها عبادات الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه **{ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها }** (1).

وما أحوج المسلمين – اليوم – إلى نبذ الخلاف والشقاق والنزاع والتباغض والتحاسد الذي ينفخ في رماده شياطين الإنس والجن – أعداء الإسلام – دعاة الفرقة، الساعين إلى الفتنة ليفشل المسلمون وتذهب ريحهم، وقد نهاهم ربهم عن ذلك بقوله تعالى "**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين**" (2) .

وما أحوج – رعاة الأمَّة – وهم مسئولون أمام الله عن رعيتهم، أن يعملوا على رأب الصدع ولَمِّ الشمل، بعد أن تداعت على المسلمين الأُمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها **(وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية)** .

وإذا فـــــرَّق الرعـــــــاة اختلافٌ .. علَّموا هَارِب الذِّئاب التجريَّ

وما أحوج المسلمين – اليوم – إلى أن يستعيدوا أمجاد سلفهم الصالح، يوم دانت لهم الدنيا – بنصر الله – فمكَّن لهم في الأرض، لأنَّهم اعتصموا بحبله، وكانوا كالجسد الواحد، نصروا الله فنصرهم ، وألَّف بين قلوبهم، فتحقَّق وعد الله لهم "**ولينصرن الله مَنْ ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الذين إنْ**

---

(1) إبراهيم : ٣٥

(2) الأنفال : ٤٦

مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" [1] .

إنَّ صفحات تاريخ المسلمين ملأى بسجلٍ حافلٍ بجلائل الأعمال، التي وفّقهم الله إليها، حيث رأينا الدولة الإسلامية الموحدة عزيزة منيعة، قوية فتية، تتداح لها الأرض، وتتسع جنباتها، وينساح المسلمون فيها، ويفتح الإسلام البلاد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور، من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد .

ثُمَّ طُوِيَت صفحات، ومضت قرون، وسعى الشيطان بينهم بالفرقة، ودبَّ دبيب الاختلاف، وسرى داء التنازع على حطام الدنيا الفاني، فوهن جسد الأُمَّة وخارت قواها، وتمزّقت أشلاؤها – إلاَّ مَنْ رحم ربك – ونجح أعداء الإسلام – على اختلاف مللهم ونحلهم، في تحقيق غايتهم الدنيئة وهدفهم الخبيث (فَرِّق تسد) ومن ثَمَّ كان لابــُدَّ من العودة إلى المنهج الصحيح والطريق القويم "**وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعُوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتقون**"[2].

{وأنَّ هذه أمتكم أُمَّةً واحدة وأنا ربُّكم فاعبدون}[3].

مرَّت هذه الخواطر على قلبي، فأرَّقني ما آل إليه أمر المسلمين، وطافت بي ذكريات الماضي. كيف كُنَّا ؟ وكيف أصبحنا ؟ وأين الطريق ؟ فوجدتُ ضَالَّتي المنشودة في موضوع "**الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة**"، فشحذْتُ الهمَّة لمعالجة هذا الموضوع الحيوي، موضوع العصر، وسبيل النصر – إن شاء الله.

---

(١) الحج : ٤٠ ـ ٤١
(٢) الأنعام : ١٥٣
(٣) الأنبياء : ٩٢

واستخرتُ الله – عزَّ وجلَّ – ولا خاب مَن استخار – **فأنار لي السبيل** ووفَّقني إلى أن أسلك في تناول هذا الموضوع منهجين :

الأول : منهج التحليل والاستنباط على هدي من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لبيان ما جاء في الكتاب الكريم والسُنَّة النبوية الشريفةَ، من حَثٍّ على وحدة المسلمين، وحضٍّ على تعاونهم على البـــر والتقوى، وتضامنهم على الحق والهدى، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله، ونهيهم عن التفرُّق والاختلاف، والتنازع والتحاسد، والتقاطع والتدابر، موضِّحاً عاقبة هذا المسلك، وذلك عظة وعبرة .. "**ويضرب الله الأمثال للناس لعلَّهم يتذكَّرون**" [1] .

الثاني : المنهج التاريخي الاستقرائي، لأرى في صفحاته – ماضي المسلمين المجيد، وسيرة سلفهم الصالح، وكيف أعزَّهم الله حينما اعتصموا بحبله، ونصروا دينه فنصرهم، ومكَّن لهم في الأرض، متأسين بالأسوة الحسنة برسول الله ﷺ هو وأصحابه الغُرّ الميامين. رضوان الله عليهم أجمعين. حتى صارت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُفْلى .

وأرى أن خير القرون التي مرت بالأمة هي تلك التي حافظ فيها المسلمون على وحدتهم ، فامتدَّت الدولة الإسلامية – بفضل الله – حتى شملت أرجاء المعمورة، ورفرفت راية الإسلام عالية خفَّاقة ، شعارها لا إله إلاَّ الله محمَّدٌ رسولُ الله. "**إنَّ هذه أُمَّتكم أُمَّةً واحدة وأنا ربُّكم فاعبدون**"[2].

والتفتُ – مقلِّباً صفحات التاريخ – وأنا أسمع قول أمير الشعراء وقد أثارته ذكريات الأندلس فهتف من أعماق قلبه بسينيته التي استهلها بقوله :

اختلاف النهار والليـــل ينسي   اذكرا لي الصبا وأيـــام أنسي

---

(١) إبراهيم : ٢٥
(٢) الأنبياء : ٩٢

وختمها بقوله :

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التـــأسي

وهتفت معه .. ها أنذا أرى حال الأُمَّة المسلمة وقد تغيَّر، والمسلمين وقد تفرَّقوا طرائق قددا، وسعى – أعداء الإسلام – بينهم بالفساد والإفساد، رغبةً في تفكيك أواصرهم، وإضعاف قوتهم وتمزيق شملهم.

وأستخلص العبر والعظات ليكون منها حثٌ لهم على العودة – سريعاً – إلى المنهج الصحيح، والصراط المستقيم، وحض على الوحدة، وأن يجددوا الخطو نحو الهدف الأسمى، والغاية المثلى نحو الاعتصام بحبل الله، والسير على هدي رسوله ومصطفاه ﷺ، وسيرة سلفهم الصالح.

إنَّ على المسلمين أن يُغَيِّروا ما بأنفسهم حتى يغيِّر الله ما بهم **{ إنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم }** [1] .

ويثقوا في وعد الله لهم **{وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين}**[2] .

خطَّة البحث :

وقد وفَّقني الله لرسم الخطة على: تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وثبت بأهم المصادر والمراجع.

التمهيد : ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : معنى الوحدة .

المبحث الثاني : ضرورة الوحدة وحكمها .

الفصل الأول : عوامل الوحدة ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : العقيدة الصحيحة ، عقيدة التوحيد الخالص .

المبحث الثاني : العبادات الصحيحة – الغاية والهدف .

المبحث الثالث : الاتفاق على أصول التلقي .

---

(١) الرعد : ١١

(٢) الروم : ٤٧

الفصل الثاني : أسباب التفرق والاختلاف ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أسباب التفرُّق والاختلاف .

المبحث الثاني : نتائج التفرُّق والاختلاف .

الفصل الثالث : أثر الوحدة في مواجهة التحديات المعاصرة، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : قوة الأمـــَّــة .

المبحث الثاني : النصر والتمكين لدين الله .

المبحث الثالث : إحقاق الحق وإقامة العدل .

المبحث الرابع : عزة المؤمنين .

المبحث الخامس : ازدهار الحضارة في بلاد المسلمين .

الخاتمة : وتتضمن خلاصة البحث ، وأهم النتائج .

ثُمَّ ثبت بأهم المصادر والمراجع .

تمهيـــــد

معنى الوحدة ومشروعيتها



معنى الوحـدة :

الوحدة لغة: الانفراد عن الأصحاب، أي لا يخالط الناس ولا يجالسهم، ووحَّده توحيداً جعله واحداً [١] .

والوحدة في معنى التوحُّد ، وتوحَّد برأيه تفرَّد به [٢] .

ومن دلالة المعنى اللغوي لكلمة الوحدة يمكننا أن نقول إنَّ الوحدة اصطلاحاً: هي تفرُّد الأُمَّة المسلمة بخيريتها على الناس، وتميُّزها في عقيدتها ونظمها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، وبأخوَّة المؤمنين في ظلالها تآلفاً، وتعاوناً، وتراحماً، كالجسد الواحد .

وذلك على هدى من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، حيث وردت كثيرٌ من الآيات الكريمات تؤكـِّد هذا المعنى وتحثُّ عليه، من ذلك قوله تعالى **{إنَّ هذه أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وأنا ربُّكُم فاعبدون}**[٣]. وقوله تعالى **{ وإنَّ هذه أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وأنا ربُّكُم فاتَّقون }** [٤] .

ضرورة الوحدة :

إنَّ الإسلام هو الدين الحق الذي رضي الله لعباده، يقول سبحانه **{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً}**[٥]. كما يقول سبحانه **{إنَّ الدين عند الله الإسلام}**[٦] .

والمتأمِّل في أُسُس هذا الدين ومبادئه يرى دعوته إلى التعارف والتآلف والتعاون، والاتحاد، وحث المؤمنين على أنْ يكونوا كالجسد الواحد:

---

(١) تاج العروس ٥٢٥/٢
(٢) لسان العرب ٢٦٢/٤
(٣) سورة الأنبياء : ٩٢
(٤) سورة المؤمنون : ٥٢
(٥) سورة المائدة : ٣
(٦) سورة آل عمران : ١٩

ومن ذلك قوله تعالى **{ إنَّما المؤمنون أخوة }**[٧]، وقوله ﷺ **(مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى)** [٨].

وتقوم شرائع الإسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا ينفصم من كيان الأُمَّة، وعضواً موصولاً لا ينفك عنها، فهو طوعاً أو كرهاً يأخذ نصيبه ممَّا يتوزَّع على الجسم كله من غذاء ونمو وشعور . وقد جاء الخطاب الإلــهي مقرّاً هذا الوضع فلم يتَّجه للفرد وحده بالأمر والنهي، إنَّما تناول الجماعة كلَّها بالتأديب والإرشاد ، ثُمَّ من الدرس الذي يلقى على الجميع يستمع الفرد وينتصح . وهكذا اطرد سياق التشريع في الكتاب والسُنَّة. **{ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم تُفْلحون * وجاهدوا في الله حقّ جهاده }** [٩] .

وإنَّ ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج من أوضح تعاليم الإسلام، وألزم خلال المسلمين المخلصين، ولا ريب أنَّ توحيد الصُّفوف واجتماع الكلمة هي الدعامة الوطيدة لبقاء الأُمَّة، ودوام دولتها، ونجاح رسالتها. ولئن كانت كلمة التوحيد باب الإسلام، فإنَّ توحيد الكلمة سرّ البقاء فيه، والإبقاء عليه، والضمان الأوَّل للقاء الله بوجهٍ مشرقٍ وصفحةٍ نقيَّةٍ [١٠] .

ومِنْ ثَمَّ تكون الدَّعوة إلى الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة بأدلَّة من الكتاب والسُنَّة ، وقد دلَّ على ذلك كثيرٌ من الآيات الكريمات، كما دلَّ عليها أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله.

من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى **{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا**

---

(٧) سورة الحجرات : ١٠
(٨) مسلم ، ج ١٦ ، ص ١٤٠
(٩) الحج : ٧٧-٧٨
(١٠) محمَّد الغزالي : خلق المسلم ص ١٨٨-١٩١، الطبعة الثانية ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م

تفرَّقوا } [11]. ففيها الأمر بالالتزام بهذا الكتاب الكريم الذي هو حبل الله المتين، فقد خاطب المولى عزَّ وجلَّ عباده المؤمنين بتقوى الله، والاعتصام والتمسُّك بدينه، والحذر من التفرُّق عن الحق، وذلك بوقوع الخلاف والشقاق بينهم .

فهذا من خلال الجاهلية، وذكَّرهم سبحانه بنعمة الله عليهم، وكيف ألَّف بين قلوبهم فأصبحوا إخواناً في الله متحابِّين .

قال القرطبي : – رحمه الله – : فأوجب تعالى علينا التمسُّك بكتابه وسُنَّة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسُنَّة، اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسَّلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتاب .

كما يذكر في معنى قوله تعالى **{ ولا تفرَّقوا ... }** كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم – عن ابن مسعود وغيره – ويجوز أنْ يكون معناه (ولا تفرقوا) متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً ، فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابر [12].

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – : الاعتصام افتعال من العِصمة، والمراد امتثال قوله تعالى **{ واعتصموا بحبل الله }** الآية.

والمراد **{ بحبل الله }** المراد بالحبل الكتاب والسُنَّة على سبيل الاستعارة، والجامع كونهما سبباً للمقصود وهو الثواب، والنجاة من العذاب. كما أنَّ الحبل سببٌ لحصول المقصود به من السَّقي وغيره. والمراد بالكتاب القرآن المتعبَّد بتلاوته، وبالسُنَّة: ما جاء عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريره، وما همَّ بفعله [13] .

---

(١١) آل عمران : ١٠٢-١٠٣

(١٢) تفسير القرطبي ١٤٠٦/٢

(١٣) .فتح الباري ٢٥٩/١٣

وعن الاعتصام بحبل الله يقول ابن قيم الجوزية: "وهو تحكيمه دون آراء الرِّجال، ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجدهم، فمن لم يكن كذلك، فهو منسل من هذا الاعتصام، فالدين كُلّه في الاعتصام به وبحبله علماً وعملاً وإخلاصاً واستعانةً ومتابعةً واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة " (١٤)، ومن ذلك قوله تعالى { **ولتكن منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهونَ عن المنكر وأولئك هم المفلحون** } (١٥). ففيها الأمر بأنْ تكون أُمَّة ، ومن معاني الأُمَّة الجماعة الواحدة المتفقهة (١٦) ، ومنه قوله تعالى { **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين** } (١٧) ، وقوله سبحانه { **ولا تكونوا كالّذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك هم عذابٌ عظيم** } (١٨) .

ففي الآيتين نهي عن التنازع والاختلاف والتفرُّق ، لأنَّ فيه ذَهَاب القوة والفشل، ومنه قوله تعالى { **إنَّما المؤمنون إخوة** }(١٩). ويلاحظ في خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، صيغة الجمع، فنرى قوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربَّكم وافعلوا الخير لعلَّكم تفلحون..**} الخ. وقوله سبحانه { **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله..**}، وقوله عزّ من قائلٍ {**يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكم الصِّيام**}، وقوله تعالى {**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ..**}، وقوله سبحانه {**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ...** }، وقوله عزَّ وجلَّ { **يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكم القصاص في القتلى ...** }. وهكذا اطرد سياق التشريع في الكتاب والسُنَّة ، حيث جاء الخطاب الإلهي مقرّاً هذا الوضع وهو اعتبار الفرد جزءاً لا ينفصم عنها – فهو – طوعاً أو كرها ، يأخذ نصيبه مِمَّا يتوزَّع على الجسم كله من غذاءٍ

(١٤) ابن القيم : مدارج السالكين ٣٢٣/٣
(١٥) آل عمران : ١٠٣
(١٦) محمَّد رشيد رضا : المنار ٢٠/٤
(١٧) الأنفال : ٤٦
(١٨) آل عمران : ١٠٥
(١٩) الحجرات : ١٠

ونموٌّ وشعورٍ، ولهذا لم يتَّجه الخطاب للفرد وحده بالأمر والنهي، إنَّما تناول الجماعة كلها بالتأديب والإرشاد، ثُمَّ من الدرس الذي يُلْقى على الجميع يستمع الفرد وينتصح ...

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً عندما يقف المسلم بين يدي الله ليناجيه، ويتضرَّع إليه ، فإنَّه لا تجري العبادة على لسانه كعبدٍ منفصلٍ عن إخوانه، بل كطرف من مجموعٍ متَّسِقٍ مرتبطٍ، يقول تعالي: **{ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين }،** لا : إيَّاك أعبد وإيَّاك أستعين. ثُمَّ يسأل الله من خيره وهداه، فلا يختص نفسه بالدُّعاء، بل يطلب رحمة الله له ولغيره، فيقول **{اهدنا الصراط المستقيم صراط الَّذين أنعمت عليهم}** . ونتبيَّن من ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق النَّاس لينقسموا ويختلفوا .. لقد شرع لهم ديناً واحداً، وأرسل أنبياءه تترى ليقودوا النَّاس كافَّةً في طريقٍ واحدٍ، وحرَّم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين وأن يتفرَّقوا حوله عزين.

وليس أصرح ولا أبين من ذلك التقرير الذي أورده الله تعالى وصفاً لعلاقات المؤمنين حين قال بلفظ الحصر **{ إنَّما المؤمنون إخوة }.**

وكما سلك أسلوب القرآن الكريم أسلوب الترغيب والتحبيب في الدَّعوة إلى الوحدة والألفة، سلك في سبيل البناء، وتراصِّ الصفوف سبيل الترهيب والتخويف، وأسمعه يبرئ رسوله ﷺ من أولئك الذين يؤثرون ذواتهم على مجتمعاتهم بغية شهوة عارمة، أو نزوة منافع حين يقول سبحانه **{ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيَعاً لستَ منهم في شيْءٍ إنَّما أمرهم إلى الله ثُمَّ ينبئهم بما كانوا يفعلون }** (٢٠) .

بل اعتبر هذا الموقف المنشقَّ على الجماعة يُمَثِّل كُفْراً صريحاً، وشركاً بواحاً، يخرج بأصحابه عن ربقة الإسلام وذِمَّته، ولنسمع تحذيره تعالى: **{ ولا تكونوا مِنَ المشركينَ مِنَ الذين فرَّقوا دينهم شيَعاً كُلُّ حزبٍ بما**

(٢٠) الأنعام : ١٥٩

لديهم فَرِحُون } [٢١] . وقوله سبحانه **{ ولا تكونوا كالَّذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات وأولئك لهم عذابٌ عظيم }** [٢٢] .

تلك هي بعض آيات القرآن الكريم يبدو فيها الحثّ والطلب على وحدة الأُمَّة، والنَّهْي عن الفرقة والتنازع.

أمَّا السُنَّة النبوية وبناؤها لوحدة الجماعة ، وحرصها وغرسها في مجال جمع الكلمة ، وتضامن الأُمَّة، فَحَدِّث ولا حرج .

فقد أخرج الإمام مالك وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال (**إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولاَّه الله أمركم. ويسخط لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**) [٢٣]. وهذا صريح في أنَّ المسلمين لن يحوزوا رضا الله جلَّ وعلا عنهم إذا رضوا بالتفرُّق والانقسام، ولم ينصحوا لولاة أمورهم بما ينجيهم وإياهم من المسئولية أمام الله تعالى، وإن كانوا قد عبدوا الله وحده ولم يشركوا به شيئاً.

وقد جاء الأمرُ صريحاً عن رسول الله ﷺ بلزوم الجماعة في حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (**أوصيكم بأصحابي**) ... إلى أن قال: (**عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإنَّ الشيطان مع الواحد، وهو مع الإثنين أبعد، مَنْ أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومَنْ سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن**) رواه أحمد والترمذي وعبد الرَّزَّاق الصنعاني [٢٤] .

ولزوم الجماعة من أسباب التحلِّي بالأمانة، والبراءة من الخيانة، كما جاء في قوله ﷺ (**ثلاثٌ لا يُغلّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم: إخلاصُ العمل لله،**

---

(٢١) الروم : ٣١-٣٢
(٢٢) آل عمران : ٥٠
(٢٣) سنن أحمد ٣٧٧/٢ ، موطأ مالك : كتاب الكلام ، ٩٩٠
(٢٤) سنن أحمد ٢٦/١ ، الترمذي : كتاب الفتن، باب رقم ٧، المصنَّف رقم ٢٠٧١٠

والنصيحة لكلِّ مسلم، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعاءهم محيطُ مَن وراءهم) أخرجه أحمد والدارمي (٢٥) .

وقد شدَّد النبيُّ ﷺ النَّكير على مَنْ فارقَ الجماعة، فاعتبره مخالفاً لهدي الإسلام وطريقه القويم. فقد أخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة – ﷺ عن النبي ﷺ قال: **(الصَّلاة إلى الصَّلاة التي قبلها كفَّارة، والجمعة إلى الجمعة التي قبلها كفَّارة، والشهر إلى الشهر الذي قبله كفَّارة ، إلاَّ من ثلاث)** – قال: فعرفنا أنَّه من أمرٍ حدث – **(إلاَّ من الشرك بالله ، ونكث الصفقة، وترك السُنَّة)** قال: قلنا يا رسول الله، هذا الشرك بالله عرفناه، فما نكث الصفقة، وترك السُنَّة ؟ قال: **(أمَّا نكث الصفقة فإنْ تُعطِي رجلاً بيعتك ثُمَّ تقاتله بسيفك . وأمَّا ترك السُنَّة فالخروج عن الجماعة)**(٢٦).

وممَّا يرغِّب في الوحدة والنهي عن الفرقة قوله ﷺ: **(عليكم بالجماعة، فإنَّما يأكل الذِّئبُ من الغنمِ القَاصِيةَ، يدُ الله مع الجماعة، ومَنْ شَذَّ شَذَّ في النَّار)** (٢٧) .

وقوله ﷺ : **(مَنْ خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية)** (٢٨) .

كما اعتبر ﷺ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفعهم وتراحمهم كالجسد الواحد، تربطهم إخوة الإيمان، فقال ﷺ: **(المسلم أخو المسلم)** (٢٩) .

كما قال ﷺ: **(مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى)** (٣٠) .

وقوله ﷺ: **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضاً)** (٣١).

---

(٢٥) سنن الدارمي ص ٧٦ ، ويُغِل - بضم الياء وكسر الغين - من الإغلال ، وهو الخيانة ويُرْوَى بفتح الياء وكس الغين من الغِلِّ وهو الحقد .
(٢٦) مسند الإمام أحمد /٥٠٦
(٢٧) النسائي ٨٥/٧
(٢٨) مسلم ٢٣٨/١٢
(٢٩) البخاري ٩٧/٥
(٣٠) مسلم ١٤٠/١٦
(٣١) البخاري ٩٩٠/٥

وروى مالك في موطئه حديثاً مرسلاً عن سعيد بن المسيب عن رسولِ الله ﷺ قال: (**الشيطان يهم بالواحد والإثنين، وإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم**)[32]

وجاء عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنَّه قال على المنبر: (**الجماعة رحمة ، والفُرْقَة عذاب**) [33] .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: (**يدُ الله مع الجماعة**) [34] .

وقد حَذَّر ﷺ من الفُرْقَة، وعَدَّ الخارجَ عن جماعة المسلمين كافراً، فعن أبي ذَرٍّ الغِفَاريّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**مَنْ فَارَقَ الجماعة شبراً خَلَعَ رِبقةَ الإسلامِ من عُنُقِه**) [35] .

فهذه النُصوص الشرعية وغيرها كثيرٌ من الكتاب والسُنَّة، تدل بوضوحٍ وجلاءٍ على مشروعية الوحدة الإسلامية ..

" فمن لم يُؤمن بأنَّ المسلمين أُمَّةٌ واحدة ، فقد عاند نصوص القرآن ودخلَ في عِدَاد الذين يُشاقُّونَ اللهَ ورسولَه " [36] .

ولقد قال سبحانه: {**وَمَن يُشاقِق الرسول مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّن له الهدى ويتَّبِع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولَّى ونُصْلِه جَهَنَّم وساءَت مصيراً**}[37].

وبالإضافة إلى هذه النُصوص من القرآن الكريم ومن السُنَّة النبوية الشريفة، ما فعله ﷺ من تأليف قلوب المؤمنين في مكَّة، ومِنْ دعوته العامَّة للناسِ كَافَّة، تنفيذاً لقوله تعالى { **وَمَا أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين** }[38]، وقوله

---

(32) الموطأ : 694 كتاب الجامع ، باب ما جاء في الوحدة في السفر 789
(33) مسند أحمد 278/4
(34) مسند الشهاب 168/1
(35) مسند أحمد 180/5
(36) محمد أبو زهرة : الوحدة الإسلامية 353
(37) النساء : 115
(38) الأنبياء : 107

سبحانه: **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولَكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ }** [٣٩].

فبدأ ﷺ في تكوين نواة جماعة المسلمين، والوحدة الإسلامية في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، واتَّسعت دائرتها لتضم بين جنباتها العربيَّ والعجميّ، والسيد والعبد، والكبير والصَّغير، والأبيض والأسود ،لا تفاضل بينهم إلاَّ بالتقوى، يربطهم الولاء لعقيدة الإسلام، ويجمعهم الحبّ والتآلف والتراحم، على هدفٍ واحد، وغاية واحدة، وانصهرت قلوبهم في بوتقة الدَّعوة إلى الله، وصبروا وثابروا حتى كانت الهجرة إلى المدينة. وهناك أَسَّسَ رسولُ الله ﷺ الدولةَ الإسلامية، مقرّها المسجد النبوي، وعمادها أولئك السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار الذين تجلَّى فيهم صدْقُ الإيمان، وضمَّتهم الوحدة الإسلامية بأجلى مظاهرها حيث التعاون والمحبَّة والإيثار **{ للفقراء المهاجرين الذين أُخْرجوا منْ ديارِهم وَأَمْوَالِهم يبتغونَ فضلاً منَ الله ورضواناً وينصرونَ الله ورسُولَه أُوْلَئكَ هم الصادقون * والذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ والإيمان مِن قبلِهم يحبُّون مَنْ هَاجَرَ إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أوتوا ويُؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }** [٤٠].

هذه الأخوة التي جمعت بين الأوس والخزرج، بين المهاجرين والأنصار، وبينَ مختلف الأجناس والطبقات واللُّغات. هذا الصِّدِّيق أبو بكر ﷺ قُرَشيّ، وهذا سلمان ﷺ فارسيّ، وهذا بلال ﷺ حبشيّ، وذاك صُهَيب ﷺ روميّ، وهذا عمر ﷺ، وذاك أبو ذَرّ الغِفَاريّ ﷺ، نماذجَ مُثْلَى، وشموس لامعة ظهرت في سماء الإنسانية، الله ربهم، والكعبة قبلتهم، ونصرة دين الإسلام والتمكين له غايتهم، والإخلاص لله رائدهم .

---

(٣٩) سبأ : ٢٨

(٤٠) الحشر : ٨ - ٩

وبذلك امتزجت في مدينة رسولِ الله ﷺ كُلُّ العناصر العربية والأعجمية، الغنية والفقيرة، الأحرار والعبيد، ليخرج منها مزيج مستمد في خواصه وأوصافه، يختلف عن كُلِّ عنصرٍ من عناصر ذلك الممتزج، والأوصاف الجديدة لهذا المزيج، هي أُمَّةٌ إسلاميةٌ موحّدة في الغاية والمقصد والاتجاه إلى الله تعالى، والقيام بالإصلاح في الأرض، ومنع الإفساد فيها، وأن يكونوا أهل المدينة الفاضلة الإنسانية .

لم تكن المؤاخاة لمجرَّد المؤانسة بينهم، وإيناس الغريب بمن آواه، وإن كان ذلك في ذاته غرضاً مقصوداً، ولكن المراد من الإخاء، وَضْع الدّعامة لبناء وحدة إسلامية متجمعة غير متفرقة، ومتحدة غير منقسمة، ومؤتلفة غير مختلقة، وفوق ذلك بَثّ المعاونة بين أولئك المؤتلفين، وذلك بتكوين أخوة دينية، تقارب الأخوة النسبية[٤١]، بل تفوقها. وهكذا نمت نواة الوحدة الإسلامية في المدينة المنورة، ولم يقتصر ﷺ على جزيرة العرب، بل إنَّه - ولا سيما بعد صلح الحديبية في العام السادس الهجري - كاتَبَ ملوك العالم آنئذ، ورؤساء العشائر يدعوهم إلى الإسلام، ويُرَغِّبُهم في الدُّخول فيه، إخوة متحابِّين، متعاونين على الحقّ، واستجاب للدَّعوة مَنْ شرح الله صدره إلى الإسلام .

وفي العام التاسع من الهجرة، ضربت العرب وغيرهم أكبادَ إبلها إلى المدينة المنورة في وفود تترى لتبايع رسول الله ﷺ ويؤكِّد على قوله: **(اللهمَّ بلَّغت . اللَّهُمَّ اشهد . فلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ)**.

ولم ينتقل رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى إلاَّ بعد أن وضع أقدام المسلمين على طريق الفتوحات، لإخراج الناس جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد. فكانت غزواته ﷺ وجهاده في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفْلَى. وكان بعثُ أسامة بن زيد ﷺ ، ثُمَّ سار

(٤١) أبو زهرة : الوحدة الإسلامية ٦١

خلفاؤه الرَّاشدون – رضي الله عنهم – على نفس النَّهج، وتابعوهم، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، حتى مكَّن الله لدينه في الأرض مَشْرِقاً ومَغْرِباً، شمالاً وجنوباً، تحت راية القرآن وظلال الإسلام وشعار التوحيد والوحدة غاية وهدفاً .

من العرض السابق للنصوص الشرعية من كتاب الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعده – رضي الله عنهم – يتَّضِح لنا بجلاء مشروعية الوحدة .. ليتبيَّن لنا حكمها ..

حكم الوحدة الإسلامية :

الوحدة الإسلامية فريضة واجبة، لأنَّ كثيراً من النُّصُوص التي ذكرناها آنفاً أمرت بها، والأمرُ يفيد الوجوب عند الجمهور، كما أنَّ الكثير من النُّصُوص نهت عن ضدِّها، والنَّهي يفيد التحريم، فثبت وجوب هذه الفريضة من جهة الأمر بها، ومن جهة النهي عن ضدِّها .

وممَّا يؤكِّد هذا الوجوب بالإضافة إلى ما ذُكر :

١ – قتال علي ومعاوية – رضي الله عنهما – إذ لو كان انقسام الأُمَّة جائزاً لَمَا أقدم عليٌّ على قتال معاوية – رضي الله عنهما – مع الورع والتقوى، والمعروف أنَّ علياً ﷺ كان مصيباً في قتاله مع معاوية ﷺ عند أهل السُنَّة، لأنَّ وحدة الأمة الإسلامية واجبة، لا يجوز لها أنْ تنقسم أو تبتعد [٤٢] .

٢ – القاعدة الشرعية تقرِّر [ما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب][٤٣]

وهناك واجبات شرعية كثيرة لا تتم إلاَّ بالوحدة الإسلامية، وذلك كالجهاد في سبيل الله، والذَّود عن دينه، وحماية البيضة، ونصرة المستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدان الذين يعيشون تحت وطأة الأعداء .

فهذه الواجبات وأمثالها لا تتحقق إلاَّ بالوحدة الإسلامية، فيترتب على ذلك أن تأخذ هذه الوحدة حكم الواجبات .

---

(٤٢) شرح الطحاوية ص ٤٣

(٤٣) روضة الناظر ص ١٤

٣ - أنَّ أُمَم الأرض، والقوى المعادية للإسلام وللمسلمين رغم ما هُم عليه من الباطل، تتحزَّب وتتجمَّع، فاليهود يتنادون من كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْب، ويتكتلون، ويتعاونون فيما بينهم للعودة إلى أرض المعاد - كما يزعمون - إلى فلسطين، لإقامة دولة بني إسرائيل، وشدّ أزرها.

والكفار في كُلِّ مكان يلتقون، ويجتمعون على محاربة الإسلام والمسلمين، بشتَّى الطُّرُق والوسائل، ويحاولون جاهدين بَثّ بذور الشِّقَاق والخلاف، والنِّزاع بين المسلمين، ويعملون على تمزيق الشعوب الإسلامية، وامتصاص دمائهم وخيرات بلادهم .

فهل يعقل في ميزان الله، ميزان الحق والعدل، أن يتكتَّل الكُفَّار على باطلهم، ونتفرَّق نحن على الحق الذي يجمعنا ؟!

وإذا لم نتَّحِد في أُمَّةٍ واحدة، وتحت راية الإسلام، فكيف نتصدَّى لهذه القوى المعادية ؟!. وكيف نصون حِمَى الإسلام والمسلمين ؟!

وصدق الله العظيم **{ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاَّ تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير }** (٤٤) .

وصدق الله العظيم **{ وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلوكم كافَّة واعلموا أنَّ الله مع المؤمنين }** (٤٥) .

أي : إذا لم يوالِ بعضكم بعضاً ، وينصر بعضكم بعضاً، كما يفعل الكُفَّار، تحدُث الفتنة والفساد لاتحادهم وتفرُّقكم، فعليكم أن تتحدوا ويشد بعضكم أزر بعض، وتقاتلون عدوكم متناصرين متضامنين، لتدفعوا عن الحق، وتذودوا عن دين الله، وتمكّنوا له في الأرض، وتقيموا العدل " فإنَّ المهمَّة التي ناط الله بها الأُمَّة المسلمة ليست هي مجرَّد هداية الناس إلى الخير الذي

---

(٤٤) الأنفال : ٧٣

(٤٥) التوبــة : ٣٦

جاء به الإسلام، وحماية العقيدة الإسلامية وأصحابها، إنَّما هي أكبر من ذلك وأشمل، إنَّها كذلك حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعاً، واستبعاد عنصر القوة المادية من ميدان الاعتقاد والعقيدة، وحماية الضُّعَفَاءِ منَ الناس منْ عسف الأقوياء، ودفع الظُّلم أيّاً كان موقعه، وأيّاً كان الشرُّ والفساد في الأرض، بحكم الوصاية الرشيدة التي ناطها الله بهذه الأُمَّة حيث يقول: { **كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاسِ تأمُرونَ بالمعروفِ وتنهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ** }[٤٦]. {**وكذلك جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ ويكون الرَّسولُ عليكم شهيداً** } [٤٧] .

وإنَّ المهمَّة التي ناطها بالمسلمين، والمشاق التي تعترض طريقهم لأداء تلك المهمَّة تقتضي ذلك التضامن المطلق على أساس الفكرة التي تجمعهم، وتقوم مقام الجنس والوطن والدم والنسب، لأنَّ عليهم واجباً أبعد وأكبر من هذه الصِّلات كلها مجتمعة .

هنالك عصبية إسلامية إذن ، ولكنَّها عصبية على هذا المعنى، وفي تلك الحدود، عصبية التضامن بين المسلمين جميعاً في الإخلاص لفكرة، وعصبية التعاون فيما بينهم على إيصال الخير الذي تحمله هذه الفكرة للناس جميعاً، الخير الذي جرَّبوه في حياتهم الخاصَّة، فانتفعوا به انتفاعاً عظيماً .. إيصاله إلى النَّاس جميعاً بالدَّعوة إليه بالحُسْنى { **ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هيَ أحسن**}[٤٨]. وعلى إزالـــة الحواجز التعسُّفية من طريق هذه الدعوة.

(٤٦) آل عمران : ١١٠
(٤٧) البقرة : ١٤٣
(٤٨) النحل : ١٢٥

وأخيراً لتحقيق العدالة الاجتماعية في الأرض كلها، ودفع الظُّلم في أيَّـة صورة من صوره، لا يهم أن يكون هذا الظُّلم واقعاً على مسلمٍ من مسلمٍ أو غير مسلم، واقعاً على فردٍ من فردٍ، أو على الأُمَّة من فرد، أو على أمَّة من أُمَّة ..

فالأمَّـة المسـلمة – كمـا أسلفنا – مكلَّفة دفع الظُّلم عن البشرية كافَّة، وبالـنظرة الإنسانية الشاملة لا المذهبية الضيقة، تحقيقاً لمعنى الرَّحمة العامَّة التـي أرسـل بها محمَّد ﷺ للعالمين، وتحقيقاً للوصاية العامَّة التي ناطها الله بالمسـلمين"[٤٩]. ولـن يتحقَّق ذلك للمسلمين إلاَّ إذا كانوا متَّحدِين أقوياء، ولن يكون ذلك إلاَّ بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرُّق .

(٤٩) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي ص ٩٦-١٠٠ (بتصرُّف) .

الفصل الأول

عوامل الوحدة

المبحث الأوَّل : عقيدة التوحيد الخالص .

المبحث الثاني : العبادة الصحيحة - الغاية ، والهدف ، والأثر.

المبحث الثالث : الاتفاق على أصول التلقي (الكتاب والسنة وما أجمع عليه السلف الصالح) .

المبحث الأول

عقيدة التوحيد الخالص

إنَّ الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان ، وفضَّله على كثيرٍ ممَّن خلق، كما قال سبحانه { **ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثيرٍ ممَّن خلقنا تفضيلاً** } (١) .

واستخلفه في الأرض ليعمرها، وحمَّله الأمانة، فأرسل إليه الرسل – عليهم الصلاة والسلام – مبشرين ومنذرين { **لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرُّسُل** }(٢)، وختمت الرسالة برسالة الإسلام، فأكمل الله الدين، وأتمَّ النعمة، وارتضاه للناس{ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**}(٣) . وختم الرسل والأنبياء بمحمد ﷺ رحمة الله للعالمين { **وما أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالمين** }(٤). {**ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**}(٥).

وممَّا يميز إنسان الإسلام أنَّه رباني وثيق الصلة بالله ، عالم بدينه، وكتابه ، معلم له ، كما جاء في قوله تعالى { **ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** } (٦) .

وغاية إنسان الإسلام الأخيرة ، وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية

---

(١) الإسراء : ٧٠
(٢) النساء : ١٦٥
(٣) المائدة : ٣
(٤) الأنبياء : ١٠٧
(٥) الأحزاب : ٤٠
(٦) آل عمران : ٧٩

الإنسان، ووجهته، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة **{ يا أيها الإنسان إنَّك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه}**[1]، **{وأنَّ إلى ربك المنتهى}**[2].

ولا جدال في أنَّ للإسلام غاياتٍ وأهدافاً أخرى انسانية واجتماعية، ولكن عند التأمُّل نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته، فهذا هو هدف الأهداف، وغاية الغايات .

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى وعبادته، والسعي في مرضاته.

وفي الإسلام جهادٌ، وقتالٌ للأعداء، ولكن الغاية هي **{ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا }**[3]، **{ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }** [4].

وفي الإسلام حثٌ على المشي في مناكب الأرض والأكل من طيباتها: **{كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور}**[5].

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد ، إنَّما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله ، لا لأحد سواه ، ولهذا كان روح الإسلام وجوهره التوحيد [6] .

والتوحيد الذي هو حق الله على العبيد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال الله تعالى **{واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً}**[7] . قال ابن كثير – رحمه

---

(١) الانشقاق : ٦
(٢) النجم : ٤٢
(٣) التوبة : ٤٠
(٤) الأنفال : ٣٩
(٥) سبأ : ١٥
(٦) القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام : ٧ - ٨
(٧) النساء : ٦

الله تعالى – في هذه الآية: " يأمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنَّه هو الخالق الرازق المنعم ، المتفضّل على خلقه في جميع الأنَّات والأحوال ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً "[1].

وقال تعالى **{ وما خلقت الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبدون ... }** ففي قوله سبحانه **{ خلقت }** إضافة الخلق إلى نفسه المقدسة بصيغة الفرد، ليدل على أنَّه تعالى كما انفرد بخلقهم وحده لا شريك له . وجب عليهم حقٌ له أن يوحّدوه بالعبادة ولا يشركوا به شيئاً . ففي الآية: أنَّ الله تعالى أخبر أنَّه ما خلق الإنس والجن إلاَّ لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم ، ثُمَّ قد يعبدونه وقد لا يعبدونه ، وهو سبحانه لم يقل إنَّه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونوا هم الفاعلين له، فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويجعل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم[2].

وقد قال الله في القرآن، وفي غير ما موضع **{ اعبدوا ربكم}**، **{اتقوا ربكم}** فقد أمرهم بما خُلِقُوا له، وأرسل الرسل إلى الجن والإنس بذلك، وهذا هو المعنى الذي قصد بالآية، وهذا الذي يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه، ويقرون أنَّ الله إنَّما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية، وهي طاعته وطاعة رسله، لا ليضيعوا حقه الذي خلقهم له [3].

وقد ورد في الحديث الذي في الصحيحين: عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمارٍ فقال لي : **(يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟)** فقلت: الله ورسوله أعلم. قال : **(حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)**[4] .

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٤/١
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح التوحيد : ٤٧-٤٨
(٣) المصدر السابق
(٤) رواه الشيخان .

ويشترط لقبول هذه العبادة أن تكون بما شرع رسول الله ﷺ فلا يعبد الله إلاَّ بما شرع رسوله ﷺ لقوله: (**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)

وهذا التوحيد لابـُدَّ أن يكون اعتقاداً بالقلب ، وإقراراً باللسان، وعملاً بالجوارح .

قال ابن القَيِّم : " ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، مَنْ كمَّلها كمَّل مراتب العبودية، وبيانها أنَّ العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كُلٍّ منها عبودية تخصه . والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكُلٍّ واحد من القلب واللسان والجوارح " .

وذكر ابن القيم من واجبات القلب المتفق على وجوبها: الإخلاص، والتوكُّل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة .

وذكر من عبودية اللسان المتفق على وجوبها النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزم تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة ونحوها من الواجبات .

وذكر أمثلة للعبوديات شاملة لأحكامها الخمسة ، لكُلٍّ واحد من القلب واللسان والجوارح .

ومن الجوارح الحواس الخمس، وعلى كُلٍّ حاسَّة خمس عبوديات، وذكر أمثلتها كلها، إلى أن ذكر خمسين مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على الدَّابَّة [(١)].

---

(١) مدارج السالكين ١/١٠٩ - ١٢٢ (بتصرُّف) .

وتحقيق التوحيد يكون بتصفيته من شوائب الشرك والبدع والإصرار على الذنوب ، فمن كان كلك فقد حقق توحيده [1] .

مما سبق نعلم أنَّ غاية الإنسان وهدفه في الحياة هو توحيد الله عزَّ وجلَّ التوحيد الخالص ، وعبادته وحده لا شريك له بما شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن يكون هدفه مرضاته، وغايته محبته والقرب منه، وحسن الاتصال به، لا يريد إلاَّ وجهه، ولا يبغى إلاَّ مثوبته، لا يحب ولا يبغض إلاَّ فيه ، ولا يعطي ولا يمنع إلاَّ له .

والدنيا عنده أداة لا هدف، ووسيلة لا غاية، فهو يملكها ولا تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنَّه يدعو ربه بما دعا به محمد ﷺ (**اللَّهُمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا**) [2].

صلاته ونسكه لله، ومحياه ومماته لله، ونيته وعمله لله، وجهده وجهاده لله {**قُل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين لا شريك له**}[3].

إنَّه يفعل الخير للناس، ويسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمناً لمعروفه، لأنَّ غايته أن يحمده الله لا أن يحمدوه، وأن يرضى عنه الله لا أن يرضوه { **ويطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنَّما نطعمكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً** }[4].

إنَّه يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، لا خشية من أحد ،بل خشية من الله جلَّ جلاله.

---

(١) قرة عيون الموحدين : عبد الرحمن بن حسن ٢٧
(٢) رواه الترمذي .
(٣) الأنعام : ١٦٢
(٤) الإنسان : ٨ - ٩

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخيِّر – حين هدده أخوه بالقتل لم يردّ عليه السوء بمثله، بل قال في أدب وكرم **{ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين }** [1] .

إنَّه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصلح بين الناس، ويميط الأذى عن الطريق، إنَّه يُعلِّم الجاهل، ويهدي الحائر، ويرشد الضالّ ، لا يطلب جزاءه إلاَّ من الله، وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله حين قال كُلُّ رسول لقومه **{ وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجري إلاَّ على ربِّ العالمين }** [2] .

إنَّه يضع رأسه على كفِّه، ويقدِّم روحه فداءً للحق، يبذل النفس والمال ذياداً عن القيم والحرمات، ولكنه لا يفعل هذا ليذكر اسمه في قائمة الأبطال، ولا ليحوز غنيمة دنيوية عقدها الله معه حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة [3] .

هذا هو أثر التوحيد الخالص في وحدة الأُمَّة وتكامل المجتمع، إنَّه مجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

إنَّ عقيدة التوحيد – بكل إشعاعاتها – تسيطر وتؤثِّر في مقومات النظام الاجتماعي الإسلامي، توحيد الله المطلق بلا شبهة من شرك أو تعدد، وتوحيد إرادة الله في الخلق والحفظ والضبط والحساب، وتوحيد الوجود، وتوحيد الحياة في مصدرها وطبيعتها ومقوماتها، وتوحيد الوجود، وتوحيد الحياة في مصدرها وأصلها ونشأتها، وفي أجيالها وأهدافها ومصائرها، وتوحيد الدين

---

(١) المائدة : ٢٨
(٢) الشعراء : ١٠٩
(٣) الخصائص العامة للإسلام ٢٢ - ٢٣

على أيدي أُمَّة الرسل – وهي أُمة واحدة – وتوحيد الأمة المؤمنة، وهي تشمل كل من آمنوا برسولٍ من رسل الله قبل أن يرسل أخوه بعده من لدن آدم إلى خاتم المرسلين. وتوحيد الطبيعة البشرية في اعتبارها وتوجيهها، وتوحيد العقيدة والعمل والعبادة والسلوك، وتوحيد الدنيا والآخرة في التوجه إلى الله .

عقيدة التوحيد هذه – بكل إشعاعاتها – تسيطر سيطرةً تامَّة على كُلِّ جوانب النظام الاجتماعي الإسلامي، وتحدد كُل مقوماته وخصائصه الأخرى، وتفسر كثيراً من المشاعر والآداب والأخلاق والمعاملات، الحقوق والواجبات، والعلاقات والارتباطات في هذا النظام، وفي كُلِّ صورها وأشكالها [1] .

وهكذا تحقيق التوحيد .. وهو التوحيد المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه، وهذا عزيز وجوده في الأُمَّة ، غريب في زماننا غربة شديدة.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – رحمه الله: "وتحقيق التوحيد عزيز في الأمَّة لا يوجد إلاَّ في أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه ، كما قال تعالى في يوسف عليه السلام{ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين**} – في قراءة { **المخلصين** } بضم الميم وفتح اللام – وهم في صدر الأمَّة كثيرون ، وفي آخرها هم الغرباء ، وقد قلُّوا وهم الأعظمون قدراً عند الله [2].

وهكذا حينما عرف المؤمنون الطريق، وسلكوا المنهج الحق، ووحَّدوا الله التوحيد الخالص، عزُّوا وسادوا واجتمعت قلوبهم ، وكانوا يداً على من سواهم .

---

(١) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي ١٤٢ - ١٤٣

(٢) قرة عيون الموحدين ٢٧

ولنذكر هنا درساً عملياً من الواقع الذي بعث فيه رسول الله ﷺ. وكيف كان الأوس قبل الإسلام، في ضلالٍ مبين، متفرقين، متناحرين، يدب بينهم دبيب العداوة والبغضاء، وذلك بسبب ما كانوا عليه من الجهل والشرك، وكيف أصبحوا بعد بعثته ﷺ بإيمانهم واعتصامهم بحبل الله إخواناً متحابِّين متآلفين { **واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النَّار فأنقذكم منها** } .

وهذه الأخوة هي روح الإيمان الحي، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه حتى إنَّه ليحيا بهم، ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة أو روح واحد حلَّ في أجسام متعدِّدة [1] (**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً**) [2] .

وعن أبي هريرة ؓ مرفوعاً (**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يبِع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره – التقوى ها هنا** – وأشار إلى صدره ثلاث مرَّات – **بحسب امرئٍ من الشَّرِّ أن يحقر أخاه المسلم ، كُلُّ المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه**) [3].

وهكذا تربط العقيدة الصحيحة الخالصة بين المؤمنين لتبدو الصورة في أجمل حللها من خلال قوله تعالى { **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفَّار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السُّجود** } [4] .

---

(١) الشيخ محمد الغزالي : خُلق المسلم ١٧٩
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) الفتح : ٢٩

والعقيدة الصحيحة هي التي تستمد من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ولأنَّ صحة العقيدة سيجعل المجال مفتوحاً للبناء الصحيح الذي يبني القلوب، بقناعات إيمانية، فتأتلف وتتعانق. وإنْ وُجِدَ خلاف فإنَّ المخرج منه هو الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ { **فإن تنازعتم في شيءٍ فرُدُّوه إلى الله والرسول** } [1] .

إنَّ الاستمساك بحبل الله والاعتصام به والسير على هدي الكتاب والسُنَّة هو الذي جمع العرب بعد فرقة ، وألَّف بين قلوبهم .

فإذا أراد المسلمون اليوم أن يحقِّقوا وحدتهم الإسلامية، فلابــدَّ أن يكون العامل الأوَّل في تكوين هذه الوحدة وصلابتها وقوتها، هو العقيدة الصحيحة التي تجمع صفوفهم، وتوحد شتاتهم، كما أنَّ تركهم لدينهم، واتباعهم للفلسفات البشرية، لا يقودهم إلاَّ إلى العداء والتحاسد والتفرُّق، والعودة إلى الجاهلية الأولى ، قال تعالى { **وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتقون** } [2] .

وها نحن في العصر الحديث نرى كثيراً من المسلمين قد اتَّبعوا (السُبُل) التي حذَّرهم منها القرآن، ولم يحترموا وصية ربهم، ولم يعملوا بما جاء في كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، فراجت بينهم المذاهب الإلحادية الماديِّة والوضعية، وهبَّت عليها ريح الاتجاهات الفكرية الهدَّامة للدين وللأسرة وللأخلاق، فتحارب هؤلاء وهؤلاء، وتفرَّقت الأُمَّة إلى سُبُل، بل أعلنت الحرب على كُلٍّ مَن اتَّبع سبيل الهدى من بين أبنائها، ناسين أو متناسين أنَّه حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وهو الذي يكفل لهم الحياة الرغيدة السعيدة التي يأخذون منها عملهم الصالح إلى الآخرة وهي خيرٌ وأبقى .

---

(١) النساء : ٥٩
(٢) الأنعام : ١٥٣

وبعد . فليس للمسلمين من جامعٍ أو رابطٍ غير العقيدة الإسلامية، وما كان إلاَّ الإسلام وحده، يجمع هذه القلوب المتنافرة، ولا يمكن أن يجمع القلوب إلاَّ أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثأرات القَبَلِيَّة، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية.. ويتجمَّع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال.

إنَّ وحدة العقيدة توحد تصور الأمَّة للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى تحقيق منهج الله في الأرض (1) .

ووحدة العقيدة تنطوي على وحدة الفكر، والثقافة، والأخلاق، كما تتضمن وحدة الشريعة والإمامة .

ويُفَسِّر ابن خلدون سر قدرة العقيدة على توحيد البشر فيقول:
"وسره أنَّ القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل، والميل إلى الدنيا، حصل التنافس، ونشأ الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق – أي إلى دين الله – ورفضت الدنيا والباطل – أي كل فلسفة أو مذهب يخالف الإسلام – وأقبلت على الله، اتَّحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقلَّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد ، واتَّسع نطاق الكلمة فعظمت الدولة " (2) .

ثُمَّ يستشهد بالآية الكريمة **{ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكنَّ الله ألَّف بينهم }**(3). وإنَّ أصحاب عقيدة التوحيد، حين يفيئون إليها اليوم، وحين يرفعون رايتها وحدها، يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما

---

(1) في ظلال القرآن ٢٣/٤ - ٢٧
(2) المقدمة : الفصل الخامس ١٤٢
(3) الأنفال : ٦٣

قاله ربعي بن عامر : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. إنَّ البشرية غارقة في عبادة العباد ، والتوحيد – بمعناه الشامل – هو الذي يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك فقط يتحرَّر الإنسان ، بل يولد الإنسان .

وأصحاب عقيدة التوحيد – حين يفيئون إلى منهج الله الذي مَنَّ به عليهم وينادون به – يملكون أن يتقدَّموا للبشرية بالشيء الذي تفقده اليوم جميع المناهج، والمذاهب والأنظمة، والأوضاع في الأرض كلها بلا استثناء، دور عالمي إنساني كبير، ودور قيادي أصيل، في التيارات العالمية الإنسانية، ويمنحهم سبباً وجيهاً في الجزيرة العربية ، سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني وللقيادة العالمية الإنسانية .

وهم حين يقدمون للبشرية هذه الهدية، يقدمون معها منهجاً كاملاً للحياة، منهجاً يقوم على تكريم الإنسان ، وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كُلِّ عبودية، إطلاقه بكُلِّ طاقاته ليعبد الله وحده، ولينهض بالخلافة عن الله في الأرض عزيزاً كريماً كما أراد له خالقه جلَّ جلاله [(١)].

إنَّ أصحاب عقيدة التوحيد – حين يعودون إليها – ويقومون بواجباتها سوف تعود لهم – بإذن الله – قوتهم وهيبتهم، ويجتمع شملهم، وتتحقق وحدتهم وبهذا يحققون أمر الله ، ويرجعون إلى طاعته ليكون الله معهم بالنصر والتأييد **{ ولينصرن الله مَنْ ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز }** [(٢)].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي : ٢٣٥ - ٢٣٦

(٢) الحج : ٤٠

المبحث الثاني

العبـــادة الصحيحـــة

الغاية والهدف

ذكرنا – آنفاً – أنَّ عقيدة التوحيد الصحيحة الخالصة هي من أعظم عوامل وحدة المسلمين ، وهي الركيزة التي تقوم عليها ركائز أخرى ومنها: العبادة الصحيحة :

معنى العبادة لغةً وشرعاً :

معناها لغةً : مشتقَّة من الفعل عبد ، والعبودية إظهار التذلُّل، والعبادة أبلغ منها، لأنَّه غاية التذلُّل ولا يستحقها إلاَّ مَنْ له غاية الإفضال وهو الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال : **{ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه}** .

والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير لغير ذوي النطق، وعبادة بالاختيار، هي لذوي النطق، وهي المأمور بها[١] في نحو قوله تعالى **{اعبدوا ربكم}**، و**{ اعبدوا الله }** .

والعبادة هي الخضوع والطاعة وهي قاصرة على الله عزَّ وجلَّ، وإلى هذا أشار ابن سيدة فقال: " أصل العبادة في اللغة التذلُّل والخضوع، والتذلُّل والاستكانة – قرائب في المعنى، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة طاعة كان للمعبود، أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلُّل لهي عبادة [٢] .

وبناءً على هذا المعنى الأصلي للعبادة سار المفسِّرون وأكَّدوه في تفسير الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم من هذا الاشتقاق . قال الطبري – في

---

(١) المفردات للراغب .
(٢) مقاييس اللغة ، لابن فارس ٢٠٥/٤ ، ٢٠٧ ، والمعجم الوسيط ٥٧٩/٢

تأويل قوله تعالى { **إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين** }، وتأويل قوله تعالى {**إيَّاك نعبد**} - لك اللَّهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك . واستشهد لذلك بما رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال جبريل لمحمد ﷺ : قُل يا محمد : إيَّاك نعبد، إيَّاك نوحِّد ونخاف ونرجو يا ربَّنا لا لغيرك، ثُمَّ قال : وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلناه، وإنَّما اخترنا البيان عن تأويله بأنَّه بمعنى نخشع ونذل ونستكين ، دون البيان عنه، بأنَّه بمعنى نرجو ونخاف ، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلاَّ مع ذلة ، لأنَّ العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة .

وأنَّها تُسَمَّى الطريق المُذَلَّل الذي قد وطئته الأقدام وذَلَّلته السَّابِلَةُ، مُعَبَّداً، وسُمِّي العبد عبداً لِذلَّته لمولاه، والشواهد من أشعار العرب وكلامها على ذلك أكثر من أن تحصى (١) .

أمَّا المعنى الشرعي للعبادة : فيختلف باختلاف النظر إلى عمومها وخصوصها، والذي حققه ابن تيمية أنَّ العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة وحب الله ورسوله، وخشية الله ، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه ، والرضى بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك من العبادة ، وهكذا يمضي في

---

(١) تفسير الطبري ٥٣/١

ذكر أنواع أخرى حتى يصل إلى أنَّ العبادة هي الدين[١]، واستدل على ذلك بأنَّ القرآن يقرن العبادة بالتوكُّل في قوله تعالى **{ فاعبده وتوكَّل عليه }**[٢]. وقوله **{ قل هو ربي لا إله إلاَّ هو عليه توكَّلت وإليه متاب }** [٣] .

ومن هذا المعنى يتبين لنا نظرة ابن تيمية لمفهوم العبادة، وتعميمهما حتى تشمل الدين كله .

لأنَّ العبادة بالمعنى الخاص هي: الأعمال الخاصة المحددة التي كلف العبد القيام بها كتمرين عملي له على الخضوع الكامل والتذلُّل، وهو ما يعبر عنه بالشعائر التعبدية، كأركان الإسلام الخمسة. ولكن المعنى العام هو الأولى بالقبول، والأقرب إلى روح الإسلام ومنهجه، وإلى هذا أشار كثيرٌ من العلماء.

قال ابن كثير – رحمه الله – والعبادة في الشرع هي ما يجمع كمال المحبة والخضوع . وقال في تعليل تقديم المفعول به (إياك) في قوله تعالى: **{ إياك نعبد وإياك نستعين }** إنَّ ذلك للاهتمام والحصر ، أي لا نعبد إلاَّ إياك ولا نتوكل إلاَّ عليك . وهذا هو كمال الطاعة . والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عزَّ وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن[٤] **{فاعبده وتوكل عليه}**[٥]. **{ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا }** [٦] .

---

(١) العبودية : ٣٨-٤٠
(٢) هود : ١٢٣
(٣) الرعد : ٣٠
(٤) مختصر تفسير ابن كصير ٢٢/١
(٥) هود : ١٢٣
(٦) الملك : ٢٩

وذكر المودودي حول معاني العبادة العامة والخاصة كلاماً طيباً ملخصه (وجملة القول : أنَّ خوفك لله تعالى في كل شأن من شئون حياتك، وفي كل حين من أحيانك، وجعلك مرضاة الله نصب عينيك، واتباعك لقانونه، ورفضك لكل منفعة تنالها، أو يمكن أن تنالها بمعصيته، وصبرك على كُلِّ مضرة تصيبك أو يمكن أن تصيبك بطاعته، ذلك كله من عبادتك لله تعالى، وحياتك من أولها إلى آخرها عبادة ، وليس الأكل والشرب والنوم واليقظة والقعود والقيام والمشي والكلام والسكوت، إلاَّ من العبادة.

وهذه هي العبادة، وهذا هو معناها الحقيقي، وما فرض الإسلام إلاَّ أن يجعل الإنسان يعبد الله مثل هذه العبادة في كُلِّ حين من أحيانه، وقد افترض عليه لهذا الغرض مجموعة من العبادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة، فكأنه ليست العبادات المفروضة إلاَّ بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة، فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه، يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد.

ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الإسلام، وقيل إنها أركان الدين [1] .

وبهذا جمع المودودي العبادة بمعناها العام والعبادة بمعناها الخاص، وبين الرابطة بينهما حيث الشعائر التعبدية المعروفة تهيئة للعبادة الكبيرة، وتدريب مسبق عليها، حتى يتم النجاح في أدائها والاتقان في القيام بها .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أنَّ العبادة التي قصد إليها الشارع والتي تعلي الإنسان وتشرّفه، وترفع من قدره ومكانته، وتجعله يحس بإنسانيته وكرامته، هي التي تجمع بين الخضوع لله تعالى، والمحبة له، والخشية منه.

ومتى اكتملت هذه المعاني في عبدٍ كان أقرب إلى ربه، وأكرم عليه من غيره، وأحق بالإمامة في الدين، وقيادة المتقين، والحديث عن رب العالمين .

---

(١) مبادئ الإسلام ١١٠ ، ١١٢

فأساس الخضوع لله تعالى هو: الإحساس الصادق بهيبته وعظمته، وسلطانه وقدرته، وأنه المعطي المانع، الضار النافع، المحي المميت، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الغني عن كُلٍّ ما سواه، والمحتاج إليه جميع ما عداه .

والإنسان يكون في قمة التواضع إذا سجد لخالقه ومولاه، وقام بحق مَنْ خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، وهو في ذلك يكون في أسمى حالات القرب، وأرجى أسباب القبول، يقول رسول الله ﷺ **(وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء)** [1] .

وفي معناه قول الله تعالى لنبيه ﷺ **{ فاسْجُدْ واقْتَرِب }** [2] .

وفي السجود كمال الخضوع والانقياد لمن بيده ملكوت كل شيء، وهو الله رب العالمين، وكمال الخضوع إنَّما يتم إذا استجاب العبد لربه، وآثره على ما سواه، وقدَّم شريعته على كُلٍّ الشرائع، وأمره في كُلٍّ الأمور، وعرف معرفة الشاكرين عظيم حقه عليه، ورحمته به، وجميل إحسانه إليه .

والإنسان الذي يحس بعظيم فضل ربه عليه ، وإحسانه الدائم ، وعفوه وستره ، ورحمته ومغفرته ، فإنَّه يحب ربه أعظم الحب ، ويتفانى في إرضائه أشد التفاني .

ومعنى حبه لله : أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله، مسارعاً إلى مرضاته، فارّاً من سخطه إلى رضاه، ومن معصيته إلى طاعته، ومنه إليه .

والله سبحانه يحب من عباده صادق الإيمان به، وكامل الإخلاص له، وعظيم التوكل عليه، وجميع الثقة بوعده، ثُمَّ هو يحب المتقين، ويحب

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) العلق : ١٩

المحسنين، ويحب الصابرين، فهو يحب من الأعمال والناس ما أحبه الله، فبادله الله تعالى حباً بحب، ووداً بود، قال تعالى { **إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا** } [1] .

والذين عرفوا ربهم وأحبوه ، أحبوا رسوله محمداً ﷺ الذي عرَّفهم به، ودلَّهم عليه ، بل لا يتم الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه التي بين جنبيه ، يقول عليه الصلاة والسلام (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين**) [2] .

ومحبة الله ورسوله هي غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، ومطلب الأخيار الأبرار ، إذ هي لذة القلب ونعيمه وراحته ورحمته وجماله وأُنسه، وما من خلق قبل المحبة إلاَّ هو طريقها ودليلها والموصل إليها، كالتوبة والصبر وأنَّ محبة الله ورسوله إذا حلَّت في القلب آثرت المحبوب على كُلٍّ ما عداه ، وقدمته على جميع من سواه ، وكل محبة بعد ذلك فهي تابعة محبة المؤمن لأخيه المؤمن ، وإيثاره على نفسه ، وتنفيس كربته ، وستر عورته .

وأمَّا الخوف الذي أضافه ابن كثير إلى تعريف العبادة فهو يعطي أنَّ عباد الله الذين عرفوا ربهم ، وخضعوا له ، واستجابوا لأمره ، وأثمرت لهم هذه المعرفة حُبّاً وشوقاً ، يخشون ربهم ويخافونه ، وهم دائماً بين خوفٍ ورجاء .

وقد امتدح الله عباده الذين يخشونه، ويخافون حسابه ، قال تعالى :

{ **إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون** *

---

(١) مريم : ٩٦

(٢) رواه البخاري .

والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنَّهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}[1].

وكلَّما قويت معرفة العبد بربه، كلَّما اشتدت خشيته منه، وتعظيمه له[2]. يقول عليه الصلاة والسلام (**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة**) [3] .

صحة العبادة :

وإذا كُنَّا قد قرَّرنا – من قبل – أنَّ من صحة العقيدة صدق العبودية لله تعالى ، فإنَّنا نقرِّر هنا أنَّ مظاهر هذه العبودية تكون – كما أسلفنا – في حياة المسلم كلها .

غير أنَّه ينبغي أن نؤكد على حقيقةٍ أخرى يغفل عنها كثيرٌ من الناس، أو بعبارةٍ أخرى ، لم يُرِد أعداءُ الأُمَّة أنْ نَعْرِفَهَا ، وهي أنَّ حياة الأُمَّة كلها ينبغي أن تكون في عبادة الله تعالى . وأنَّ العبادة بعناصرها المتقدمة لا تكون صحيحة ومقبولة، إلاَّ إذا وقعت على الوجه المشروع ، وقصد بها صاحبها وجه الله وحده ، قال تعالى { **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** } [4] .

وقال سبحانه { **بَلَى مَنْ أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** } [5] .

---

(١) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١

(٢) د. علي عبد اللطيف، بحث مقدم إلى الجامعة الإسلامية المؤتمر العالمي الثاني للدعوة ،١٤٠٣هـ ـ ١٤٠٤ هـ . بتصرف .

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وأدلج: سار من أول الليل. والمعنى التشمير في الطاعة .

(٤) الكهف : ١١٠

(٥) البقرة : ١١٢

ويقول عليه الصلاة والسلام (**إنَّما الأعمال بالنيات ، وإنَّما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)**(١).

ويقول ابن الجوزي – رحمه الله – " واعلم أنَّ الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ، ليست ممَّا يُقْطَع بالأقدام ، وإنَّما يُقْطَع بالقلوب والشهوات العاجلة قطاع الطريق ، والسبيل كالليل المدلهم، غير أنَّ الموفق بَصرٌ فَرسٌ لأنَّه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء ، والصدق في الطلب منار ، أين وُجِدَ يدلُ على الجادة ، وإنَّما يتغير مَنْ لم يخلص ، وإنَّما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله "(٢).

وتتحقَّق صحة العبادة – أيضاً – بحرص كل فرد من الأمة على فعل كُلَّ عمل خير نافع قد دلَّ الشرع على صلاحه ونفعه .

وأن لا يرتكب في أدائه مخالفة ، ويتحرَّى فيه ما كان عليه هدي رسول الله ﷺ وأصحابه ، وسلف هذه الأُمَّة . وأن يراد بهذا العمل وجه الله تبارك وتعالى بتمحيص النية وتخليصها من شوائب الرياء والسمعة والأعراض الدنيوية حتى يكون العمل خالصاً لوجه الله { **فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص** }(٣) . وعندئذ تكون كل حياة الأفراد عبادة وتكون أمتهم أمة عابدة ، لها صبغتها المميزة { **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** }(٤) { **محمَّدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفَّار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود** }(٥).

---

(١) متفق عليه .
(٢) صيد الخاطر ٣٥٥
(٣) الزمر : ١ - ٢
(٤) البقرة : ١٣٨
(٥) الفتح : ٢٩

ونستطيع أن نقول : إنَّ هذا المعنى من العبادة والذي تنتظم حياة الأُمَّة كلها، هو ما نفهمه من قوله تعالى **{ قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين }**[1].

وإذا قلنا إنَّ حياة الأُمَّة ينبغي أن تكون كلها لله ، فإنَّ الطريق إلى ذلك بعد تصحيح العقيدة – وهو تصحيح العبادة – ومنهج التصحيح واحد، لا يختلف عليه أحد، وهو الرجوع إلى كتاب الله تعالى، وإلى سُنَّة رسوله ﷺ مع الاسترشاد بفهم وفقه سلفنا الصالح في ذلك، فإنَّ تصحيح العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وبقية الشعائر، هو الذي يدفع بالفرد العابد إلى ميادين الحياة إنساناً كريماً لا يعرف إلاَّ حب الخير وفعله ، ولا يرجو من فعله إلاَّ وجه الله[2].

وهذا الفهم الصحيح للعبادة هو الذي يحقِّق حكمة العبادات وأهدافها، والتي تؤدي بدورها إلى وحدة القلوب والمشاعر .

حكمة العبادات وأهدافها :

شرعت العبادات في الإسلام لتحقيق أكثر من غرض، واستثمار أكثر من هدف ، وتوفير أكثر من مصلحة دنيوية وأخروية .

قال الشاطبي : " إنَّ مقصود العبادات الخضوع لله ، والتوجه إليه، والتذلل بين يديه ، والانقياد تحت حكمه ، وعمارة القلب بذكره ، حتى يكون

---

(١) الأنعام : ١٦٢-١٦٣

(٢) د. محمد رأفت سعيد ، بحث مقدم إلى المؤتمر الثاني العالمي للدعوة ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . بتصرف .

العبد بقلبه وجوارحه حاضراً مع الله ، ومراقباً له غير غافل عنه، وأن يكون ساعياً في مرضاته، وما يقرب إليه على حسب طاقته " [1].

وبجانب التعبد لله عزَّ وجلَّ والانقياد لأمره ، استنبط بعض العلماء حِكَماً وأهدافاً وأسراراً من ذلك :

١ - أنَّ العبادة غذاء للقلب والروح . ومعنى ذلك أنَّ حياتهما بها، وموتهما بفقدانها، كما أنَّ فيهما صلاحهما ، وفي غيابها فسادهما .

يقول ابن تيمية : " القلب فقير بالذات إلى الله تعالى من جهتين: من جهة العبادة ، ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلاَّ بعبادة ربه وحده، وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل لــه كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هي معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه،

وبذلك يحصل لــه الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلاَّ بإعانة الله له، فإنَّه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلاَّ الله، فهو دائماً مفتقرٌ إلى حقيقة [2] **{ إياك نعبد وإياك نستعين }**.

٢ - وهي سبيل لحرية الفرد والجماعة ، حيث تأخذ قلب العبد وبدنه من كُلِّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ ، وتحرِّر الإنسان من كُلِّ سيطرة واستكانة لغير الله سبحانه ، وتجعل من الإنسان سيداً لكُلِّ ما سخَّره الله عزَّ وجلَّ له من بين الكائنات ، ويسوي بينه وبين سائر الآدميين مهما اختلفت الطبقات في الإنسانية والحرية والعبودية لله وحده، (فكلَّما قوى إخلاص دينه لله، كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله، تكمل براءته من

---

(١) الموافقات ١٦٧/٢

(٢) العبودية ١٠٨ ، العبادة في الإسلام ٩٧-٩٨

الكبر والشرك)[1]. ولذا قال سلفناالصالح في الحرية تمام العبودية ، وفي العبودية تمام الحرية.

٣ – والعبادة ابتلاء إلهي، يصقل الإنسان ويصلحه ويقوم اعوجاجه، وينظف سلوكه ، ويوجه حركاته وسكناته ، ويقوده إلى الخيرحيثما كان، قال تعالى: **{إنَّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً}**[2].

ويصوغه صياغة جديدة ترتكز على الصلة بالله، والتعرف إليه، وإبراز الخصائص العليا الكامنة فيه، وتطهيره من الغرائز السفلى، وفي سبيل ذلك أوصى الله عباده بالفضائل، وحذَّرهم من الرزذائل، فقال سبحانه: **{ إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلَّكم تَذَكَّرُون }**[3].

٤ – والعبادة أولاً وآخراً هي حق الله على العباد، حق الخالق على المخلوق حق الربوبية على العبودية، قال تعالى **{يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلَّكم تتقون }**[4].

وقال : **{ ذلكم الله ربكم لا إله إلاَّ هو خالق كُلِّ شيء فاعبدوه وهو على كُلِّ شيءٍ وكيل }**[5] .

وقال رسول الله ﷺ (**يا معاذ . هل تدري ما حق الله على عباده. وما حق العباد على الله . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنَّ حق الله على**

---

(١) العبودية ١١٤ ، العبادة في الإسلام ١٠٢
(٢) الكهف : ٧
(٣) النحل : ٩٠
(٤) البقرة : ٢١
(٥) الأنعام : ١٠٢

العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب مَنْ لا يُشْرِك به شيئاً) [1] .

وهذه الحكم والأهداف وحدة متماسكة لا يجوز فصمها أو تقسيمها، ومن عرفها حافظ على القيام بها ، وسعد بأدائها .

قال النيسابوري: "من عرف فوائد العبادات طاب له الاشتغال بها، وثقل عليه الاشتغال بغيرها، لأنَّ الكمال محبوب لذاته، وأكمل أحوال الإنسان اشتغاله بخدمة مولاه ، فإنَّه يستنير قلبه بنوره ، ويشرق عليه من جماله، ولذا قد ورد (**من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار**) " [2].

أثر العبادات في الفرد والمجتمع :

إنَّ الإسلام يقيم منهجه التربوي على أساسِ العبادة بمعناها العام الشامل الواسع، لأنَّها تقيم الصلة الدائمة بالله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الضمان الكامل للخير الحقيقي في هذه الأرض ، أو ممن على هذه الأرض ، ولن تقوم للحق والعدل الأزليين قائمة ، ولن يكون لهما وجود إلاَّ بالتقاء البشر كلهم عند خالقهم، ومن ثَمَّ استشعار الرابطة الإنسانية الحقيقية التي تربط الجميع، ولأنَّ الإسلام يدرك هذه الحقيقة الكبرى ، فإنَّه يجعل العبادة هي القاعدة العظمى لنظام الحياة كله [3] .

وفي اتجاه الإسلام إلى منهج العبادة في التربية موائمة لفطرته، حيث يقوم هذا المنهج على فكرة القرآن الكريم ، وتصوره لوضع الإنسان من الكون والحياة ، وفطرة نفسه على التعبد والتوجه إلى بارئها بالتضرع

---

(١) متفق عليه .
(٢) تفسير غرائب القرآن ٩٤/١
(٣) منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب ٣٨ - ٤٠

والدعاء، وهدفه أن يضع الإنسان في مكانه الصحيح من الكون حتى لا يخرج عن سنته، ولا ينحرف عن ناموسه ، لأنَّ خروجه وانحرافه يؤديان به إلى الضلال والشقاء[1] .

إنَّ العبادة تربي النفس الإنسانية على مقاومة ما فيها من ضعف، والتغلُّب على ما فيها من شهوات، والتسامي بها لتقويتها، لا لتكون قوة بطش وطغيان، ولكن لتكون قوة ضبط واعتدال، وحينئذٍ يصبح هوى الإنسان تبعاً لمنهج القرآن، وهدي رسول الله ﷺ، ويسير في حياته على الصراط المستقيم، وينجح في آخرته في عبور الصراط مع عباد الله الصالحين [2] .

وقد بَيَّن الشاطبي : أنَّ تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: **أحدها:** أن تكون ضرورية. **والثاني:** أن تكون حاجية. **والثالث:** أن تكون تحسينية. وذكر أنَّ الضرورية هي التي لابـدَّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وبهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين .

والحفظ لها يكون بأمرين : **أحدهما** : ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود .

والثاني : ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها ، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم . ثُمَّ بين أنَّ أصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جهة الوجوب كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما أشبه ذلك .

---

(١) منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ١٧٩

(٢) د. محمد نبيل غنايم، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثاني للدعوة، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣-١٤٠٤هـ .

ثُمَّ بيَّن الشاطبي بعد ذلك أنَّ العبادات داخلةٌ أيضاً في الحاجيات والتحسينات ، ولا يتوقف تأثيرها عند الضروريات [1] .

ولا يستطيع المسلم أن يتصور قيام بناء الإسلام ودولته ، دون قيام أركانه والتي أبرزها العبادات المعروفة والشعائر التعبدية المشهورة ، فالبناء يستمد قوته من قوة أساسه ، وإذا كان الأساس منهاراً فإنَّه لا بناء أصلاً، لذلك كانت القاعدة في التربية الإسلامية أحكام أمر الأركان ليبنى عليها بناء الإسلام كله [2].

إنَّ العبادات لها أثرها الواضح في تقويم الأخلاق وتزكية النفوس، وشحذ العزائم والترقي إلى درجة الإحسان الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام (**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك**)[3] . وذلك بالنسبة للفرد الذي يقصد به الأفراد، ومن مجموع الأفراد تتكون الجماعات والأمم .

وإذا كان هذا أثر العبادات في الفرد فإنَّ أثر العبادات في الجماعات يتجلَّى في دعم روابطها وبناء علاقتها على أُسُس راسخة من العدل والإخاء والبر والإحسان ، فتتم صياغتهم صياغة إنسانية كاملة بتأليف بناء قوي متماسك قائم على العدل والمساواة والأحسان، والإيثار والبر والرحمة، والتعاون على جلب الخير ودفع الضرر . لأنَّ الجماعة التي ينشدها الإسلام هي الجماعة المتماسكة المترابطة التي تكونت من اللبنات الصالحة التي بدأت بالإخاء ، ثُمَّ تجاوزته إلى الحب ، ثُمَّ ارتقت إلى الإيثار . ومن هنا ندرك أنَّ الجماعة التي يريدها الإسلام لها سمات ومميزات :

---

(١) الموافقات ٥٢٤/٢

(٢) سعيد حوى : الإسلام ٢٠

(٣) رواه البخاري .

أولاً : أنَّها الجماعة المؤمنة ، وباسم الإيمان ناداها رب العالمين ، في كثيرٍ من الآيات لتستشعر النعمة ، وتحس بالفضل ، قال تعالى **{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاَّ وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون }** (١) .

ثانياً : أنَّها الجماعة التي يحكمها العدل والإنصاف ، يقول الله تعالى **{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين }** (٢) .

ثالثاً : أنَّها الجماعة التي يقودها خيارها، ويتولَّى أمرها حكماؤها وعلماؤها.

رابعاً : أنَّها الجماعة التي تتواصى بالخير والحق، وتتعاون على البر والتقوى، وتتناصح على مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، يقول سبحانه **{والعصر * إنَّ الإنسان لفي خسر * إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}** (٣).

خامساً : أنَّها الجماعة التي تستعذب الجهاد في سبيل الله، وتقدِّم النفس والنفيس والأهل والولد ابتغاء مرضاة الله، ورفعاً لدينه، وإعلاءً لكلمته **{ إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهـم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقَّاً في التوراة والإنجيل والقرآن**

---

(١) آل عمران : ١٠٢ ـ ١٠٣
(٢) النساء : ١٣٥
(٣) سورة العصر .

ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم } [1] .

وهذه هي الجماعة التي اصطفاها الله لرسالته، وخصَّها بكرامته، فارتقت إلى منصب العدالة ، وتسلَّمت درجة الشهادة، يقول سبحانه : **{ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير }** [2] .

وفي هاتين الآيتين الكريمتين نرى الأثر الواضح القوي للعبادات في الإسلام وأثرها في المؤمنين به، فهو يناديهم بأحب نداء إليهم، وهو الإيمان، ويأمرهم بمجموعةٍ من العبادات ، ويخص منها الركوع والسجود ، ثُمَّ الأمر العام بالعبادة ، والجهاد في سبيل الله ، ويختصها بالأمر بالصلاة والزكاة والاعتصام بالله . يقول الأستاذ سيد قطب في نهاية تفسيره للآيتين : " ... فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد ، والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض ، والتأمين من الحاجة والفساد . والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد " [3] .

وهذه الجماعة التي انطبعت بطابع العقيدة ، وتأثَّرت بالتربية الربانية المتمثل في العبادات في الإسلام، هذه الجماعة ليست خيالاً، ولا شيئاً محالاً،

---

(١) التوبة : ١١١
(٢) الحج : ٧٧ - ٧٨
(٣) في ظلال القرآن ٢٤٤/٦

وإنَّما ظهرت في عالم الواقع في العصر النبوي الكريم، وعصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين. ولهذا فقد أثنى الله عليهم في كتابه فقال: **{ كنتم خير أُمَّةٍ أُخْرِجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عم المنكر وتؤمنون بالله }** [1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما سيكون لهذه الأُمَّة من رفعةٍ طالما كانت متمسكة بكتابه ، ومستجيبة لأمره ، قائمة بالعبادات وعمل الصالحات خير قيام ، قال تعالى **{ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً }** [2].

ويقول الله تعالى **{ والمؤمنون وزالمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم}**[3].

ويقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية : " إنَّ طبيعة المؤمن وهي طبيعة الأُمَّة المؤمنة ، طبيعة الوحدة ، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر **{ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}** وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة الواحدة صفاً واحداً ، لا تدخل بينها عوامل الفرقة ، وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولابُـدَّ عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة، ثَمَّة غرض

---

(١) آل عمران : ١١٠
(٢) النور : ٥٥
(٣) التوبة : ٧٢

أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التي يقررها العليم الخبير **{بعضهم أولياء بعض}** يتجهون بهذه الأُمَّة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الله وتحقيق الوصاية لهذه الأُمَّة في الأرض **{ ويقيمون الصلاة}** التي تربطهم بالله **{ويؤتون الزكاة}** الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن **{ويطيعون الله ورسوله }** فلا يكون لهم هدي غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلاَّ شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلاَّ دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله.

وبذلك يوحدون نهجهم، ويوحدون هدفهم، ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرَّق بهم السُبُل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم **{أولئك سيرحمهم الله}** والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنَّما تكون في هذه الأرض أولاً.

ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح ، ورحمة الله في اطمئنان القلب وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث، ورحمة الله في صلاح الجماعة، وتعاونها، وتضامنها، واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضا الله" ا.هـ[1]

وبعد هذا العرض المجمل عن أثر العبادات في إصلاح الأفراد والجماعات وعن مدى النتائج الحتمية لذلك، وهو التعاون والتراحم والتضامن والتلاحم الذي تكون به قوتهم وعزتهم وسعادتهم في الدارين. ننتقل للحديث عن أثر العبادات في وحدة المسلمين مفصلاً .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، سورة التوبة .

أثر العبادات – مفصلاً – في وحدة المسلمين :

لا نعتقد أنَّه بوسعنا ولا بوسع بشر ، مهما أوتي من علم ، ورُزِقَ من حكمة، أن يحيط بأسرار الله تعالى التي تضمنتها العبادات التي شرعها، والشعائر التي وضعها – من صلاة وزكاة وصوم وحج – ولولا أنَّ الله – بمنه وكرمه – أوضح من ذلك جوانب وأشار إلى أخرى، إيناساً للنفوس، وجذباً للقلوب، ما كان لبشرٍ أن يخوض في ذلك أو يتكلَّم فيه ، والتسليم معيار الإيمان وميزان الإخلاص { **إنَّما كان قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** }[1].

ولكنا من خلال تتبعنا لآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وأقوال السلف الصالح ، قد وضعنا أيدينا على بعض الأسرار والحكم والآثار التي يمكن استخلاصها من تلك العبادات لتكون ركائز لوحدة المسلمين إذا ما أُدِّيَت على الوجه المشروع .. ولهذا نذكر ونُذَكِّر – وبالله التوفيق .

أولاً : أثر الصلاة في وحدة المسلمين :

إنَّ الصلاة في الإسلام لها منزلةٌ عظمى، ومكانة أسمى، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، مَنْ وُفِّق إلى أدائها وأُعِينَ عليها ، فهو الموفَّق السعيد، ومَنْ حُرِمَ منها فهو الشقي البعيد. وهي خضوعٌ لله وخشوع ومناجاة، وطهرٌ وصفاء، وأخوة ومحبة، يؤديها المسلم – محافظاً على شروطها وآدابها – خمس مرَّات في اليوم والليلة { **فسبحان الله حين**

(١) النور : ٥١ ـ ٥٢

تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون } [1].

وهي طريق النجاح والفلاح **{ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون }** [2].

وهي نور وضياء كما قال ﷺ : (**الصلاة نور**) [3]. والمصلون عباد الرحمن – وكفاهم ذلك شرفاً – **{ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً }** [4].

وهم المتقون : **{ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة }** ثُمَّ مدحهم بقوله **{ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون }** [5].

وهم المرحومون **{ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلَّكم ترحمون }** [6].

ولا يقتصر دورها على أجرٍ يثاب عليه المؤمن، وعذابٍ ينجو منه، وإنَّما تحفظه وتنفي عنه الشرك الجلي والخفي، وتعود به إلى صفوف المتواضعين إنْ كان فيه شيء من الكبر ، وترقى به إلى درجة الأعزَّاء إن كان فيه شيء من الذلة والخنوع فالحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس، وأصحاب الثروة والقوة والنفوذ والسلطان والذين ليس لهم من ذلك شيء، كل

---

(١) الروم : ١٧ - ١٨
(٢) المؤمنون : ١
(٣) جزء من حديث رواه مسلم .
(٤) الفرقان ٦٣ - ٦٤
(٥) البقرة : ١ - ٦
(٦) النور : ٥٦

هؤلاء متساوون في الوقوف بين يدي الله والإقبال عليه ، لا فضل لأحدٍ فيهم على أحد، إلاَّ بمقدار ما في قلبه من تقوى، وما تثمره هذه التقوى من خيرات، وما تحجز عنه من موبقات، فكل أعمال الصلاة ترجع الأمر كله لله، يقف المصلون جميعاً بين يدي ربهم ، يأتمون بإمامٍ واحدٍ ، كأنهم بنيانٌ مرصوص ، يعلنون – الله أكبر – وإنَّها لنعم الكلمة تفتتح بها تلك العبادة، إنَّها إعلان بأنَّ الله أكبر من كُلِّ شيء، وفيها نفي للخوف والتردد، وإبعاد لشبح الهلع والفزع والجبن ، ولذلك كان المؤمنون هم الذين يحققون الحكم التي يمكن أن تثمرها هذه الصلاة .

لذا هيأ الله تعالى بتشريعه وحكمته للصلاة ، جوّاً طيباً من الإجلال والتعظيم والخضوع والسكينة والتعاون والاجتماع .

ثُمَّ شرع الله تعالى الأذان للدعوة إليها والجمع عليها . نداءٌ لم تتجلَّ فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلَّت فيه كذلك مقاصد الإسلام ، وشعائر التوحيد .

كما اشترط لها – الصلاة – قبل الدخول فيها طهارة الأعضاء من الحدث والنجس وستر العورة، بلباسٍ طاهرٍ، والوقوف على مكانٍ طاهرٍ، والعلم بدخول الوقت. واستقبال القبلة وما ذاك إلاَّ ليقبل المصلي على ربه طاهراً حساً ومعنىً، فيصل ما بينه وبين إخوانه المؤمنين على طهرٍ ونقاءٍ وصفاءٍ ومحبَّةٍ وإخاء. فالطهور شطر الإيمان .. والوضوء وضاءة وحسن ..

وأقيمت المساجد لإقامة تلك الشعيرة .. تلك البيوت التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، والتي يتجلَّى فيها الوقار والسكينة، والخشوع والخضوع، فهي مهبط الرحمات وملتقى الصالحين، وموضع نظر الله في الأرض، وفيها يتم التآلف والتعارف والتوحد والترابط، ويتعرَّف كُلٌّ على

حاجة أخيه، وتتجلَّى الرجولة في أسمى معانيها، قال تعالى { **في بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها اسمه يُسَبِّح له فيها بالغدو والآصال رجالٌ * لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلَّب فيه القلوب والأبصار** } [1].

لقد كانت هذه المساجد – وحسبنا في ذلك مسجد رسول الله ﷺ – مركز حياة المسلمين وتعلمهم ودراستهم، ومقر حكمهم وقيادتهم، ومصدر الإصلاح والتوجيه، تعالج فيه قضايا المسلمين الدينية والاجتماعية، ويتلقون في ساحاتها وحلقاتها كل ما يرفع من شأنهم في حياتهم، ويكتب لهم السعادة بعد مماتهم .

وكان رسولُ الله ﷺ إذا حدث حدث، أو نزل بالمسلمين أمر، أمَرَ أن يُنَادى في الناس (الصلاة جامعة) فيفيض عليهم بالنصح والإرشاد، والتذكير، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويبصرهم بما يصلح من حالهم، ويوقظ من مشاعرهم وقلوبهم ، ويشد من عزائمهم .

وظلَّت المساجد هكذا تؤدي رسالتها العظيمة في خدمة الإسلام ودعم وحدة المسلمين، فكانت القطب الذي تدور حوله رحى الحياة، تتفجر فيها ينابيع العلم والهداية ، وتنبثق منها أنوار الإصلاح والإرشاد، وينطلق من محيطها موجات الكفاح والجهاد ، تحيي موات القلوب وتزرع الإيمان في النفوس، فيينع الثمر ويطيب الجني .. والمساجد تتجلى فيها عظمة الله وحده، فلا عظمة فيها لمخلوق، ولا اختصاص لعظيم أو كبير، ولا فضل لذي حسب ونسب ، وهو مكان مشاع يتساوى فيه الناس جميعاً، الحر والعبد، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، يقول تعالى في كتابه الكريم { **يا أيها الناس إنَّا**

---

(١) النور : ٣٦ - ٣٧

خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبير}[1].

وشرع الله الجماعة للصلاة، وأبان الرسول ﷺ عن فضلها فقال: **(صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبعٍ وعشرين درجة)** [2].

وقد توعد النبيُّ ﷺ على تركها، والتخلُّف عنها، وأشار إلى أنَّ ذلك من سمات المنافقين، فقال عليه الصلاة والسلام : **(والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب، ثُمَّ آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثُمَّ آمر رجلاً فيؤم الناس ثُمَّ أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم)** [3]. ترى كيف يحرص رسول الله ﷺ على حضور الجماعة وعدم التخلُّف عنها ..

ويقول عليه الصلاة والسلام **(عليكم بالجماعة، فإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية)** [4].

أرأيتم هذا التشبيه العظيم لبيان أهمية الجماعة وقوتها، وضرر التخلف عنها، والخروج من دائرتها .

والمؤمن – في المسجد – إذا حضر الجماعة، عرف إخوانه وعرفوه، فلو غاب عنهم سألوا عنه، ودعواك بخير، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة. وإن كان مريضاً عادوه، فأثيبوا وأجروا، وجبروا خاطره، وأدخلوا السرور عليه . وإن كان حاضراً زاروه ، فتتوطَّد أواصر الأخوة، وتتأكد أسباب التضامن والمحبة .

وإذا كانت العبادات – وعمادها الصلاة – أولاً وأخيراً، هي حق الله على عباده ، وهذا الحق باقٍ ما بقي في الإنسان نَفَسٌ يتردَّد، كما قال سبحانه

---

(١) الحجرات : ١٣

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أبو داود

{ **واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين** } [1] إلاَّ أنَّ العلماء – بتوفيقٍ من الله سبحانه – قد استنبطوا – في ضوء الكتاب والسنة – بعض الحكم والأسرار النفسية والاجتماعية والأخلاقية، ومن ذلك :

الحكم النفسية :

وبتتبع النصوص الواردة في الكتاب والسُنَّة، يمكن معرفة حكم الصلاة النفسية حيثُ يقول الرسول ﷺ (**إذا قام أحدكم يصلي فهو يناجي ربه**)[2].

والمناجاة : مخاطبة الله مباشرةً ، وهي تشعر المرء بوجود الله – عزَّ وجلَّ – وجوداً حقيقياً، وأنَّه قريبٌ منه، يسمع دعاءه، ويلبي نداءه، ويستجيب له .

وإذا واظب المصلي على هذه المناجاة خمس مرَّات في اليوم والليلة، تيقَّظت قواه الروحية، وأحس بأنَّ الله يمده بالقوة، والعون. وأنَّ الله سبحانه معه لا يتخلَّى عنه، فتقوى عزيمته وتشتد إرادته، ويمضي إلى غايته دون تردد أو ضعف ، مهما اعترضته الصعاب ، أو واجهته العقبات .

وإذا ظفر بمطلوبه، وبلغ الذروة من الفوز والنجاح، فإنَّ ذلك لا يزدهيه ولا يداخله الغرور، ولو قدر أنَّه لم يبلغ ما يريد ، فإنَّه لا يحزن ولا ييأس ، بل يعيد المحاولة من جديد ، واثقاً بالله ، متوكلاً عليه ، ومستعيناً بــه .

هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، فإنَّ الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله بالذكر والدعاء والضراعة والخضوع لكبريائه وعظمته .

---

(١) الحجر : ٩٩

(٢) رواه مسلم

وهذا من شأنه أن يضفي على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيضٍ من السعادة ، فتتجدَّد قواها، ويحفزها ذلك إلى العمل الجاد والأمل في وجه الله الكريم .

ولقد كان الرسول ﷺ يدعو بلالاً ليؤذِّن بالصلاة حين يشتد عليه الأمر ويقول : **(أرحنا بها يا بلال)**[1]، ويقول **(وجُعِلَت قُرَّة عيني في الصلاة)**[2].

آثارها الخلقية :

والإنسان لا يصل إلى القرب من الله ، ولا يسعد برضاه إلاَّ إذا تطهر من الرذائل، وسائر الصفات السيئة ، يقول تعالى **{ قد أفلح من تزكَّى * وذكر اسم ربه فصلَّى }** [3].

والصلاة هي الوسيلة لهذا التطهر، لأنَّ المواظبة عليها تربي في المصلي الضمير الحي، الذي يبعث على الخير، ويحض عليه، ويمنع من الشر ويحذِّر منه .

لهذا نجد الآية الكريمة **{ وأقم الصلاة إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر }**[4]. وبالإضافة إلى هذا فإنَّ الصلاة تغرس في النفس فضيلتي الثبات والكرم، والانقياد والطاعة، والاستقامة، وتلك أكرم الخصال وأشرف الخلال، فإذا أصاب المصلِّي ما يكره لا يستبد به الجزع والهلع، وإذا أفاض الله عليه بالنعم والآلاء لا يستأثر بها، بل يشرك معه فيها غيره، وإلى هذا تشير الآية {

---

(١) رواه أبو داود ، وأحمد .
(٢) رواه النسائي .
(٣) الأعلى ١٤ - ١٥
(٤) العنكبوت : ٤٥

إنَّ الإنسان خُلِقَ هلوعا * إذا مسَّه الشر جزوعاً * وإذا مسَّه الخير منوعاً * إلاَّ المصلِّين * الذين هم على صلاتهم دائمون }[1] .

آثارها الاجتماعية :

وإذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس وطمأنينة القلب، وصفاء الروح، وتطبعه على الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة .

فإنَّ هذه الصفات تجعل المقيم لها رضي النفس، حسن الخلق، عضواً نافعاً في المجتمع الذي تعيش فيه، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج ويعم خيرها الناس، وإذا كان الفرد صالحاً صلحت الجماعة ، والتقت على الصلة بالله عزَّ وجلَّ، فبارك الله الصلة بينهم، ولذلك فإنَّ الإسلام حثَّ على الجماعة ورغَّب فيها، وأكَّد على الحرص عليها، وأوجب صلاة الجمعة في كُلِّ أسبوع، وشرع للمسلمين صلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الخوف .

فاجتماع أهل الحي في اليوم خمس مرَّات ، مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماعاً – أوسع مدى – وكذلك في العيدين وغيرها . يقوي الروابط الاجتماعية، ويشد أواصر الصلات بين الجماعة ، ويشعر كل واحد بأنَّه أخ لكل مَن في المسجد، وأنَّه مساوٍ له ، فتنمو روح الإخاء والمساواة الحقيقية، لا فرق بين غني وفقير ، ولا بين عظيمٍ وحقير، فكلهم عباد الله، اجتمعوا في بيته، تظللهم ظلال المحبة والأخوة في الله .

وبهذه الممارسة العملية للمساواة تنتفي فوارق اللون، وفوارق الثراء، وفوارق الدم، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنَّه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنَّها للفرد .

---

(١) المعارج : ١٩ ـ ٢٣

وهذه الغاية هي أسمى الغايات التي يجهد العلماء والحكماء والمربون والفلاسفة أنفسهم في تحقيقها، ليعم البشرية الأمن والسلام .

ويلاحظ أنَّ هذه الحكم لا يمكن أن تتحقَّق إلاَّ إذا أقبل المصلي على صلاته بوعيٍ كاملٍ، ويقظةٍ تامَّة، وتأمل حقيقي في أقوال الصلاة وأفعالها، يقول تعالى **{قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون}**[1] .

وإذا تجرَّدت الصلاة من هذا الوعي كانت قليلة الثمرة، بل عديمة الجدوى[2]، ولنصغِ إلى هذا الحديث القدسي الذي يرويه النبيُّ ﷺ عن ربه: **(إنَّما أتقبَّل الصلاة ممَّن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل بها على خلقي، ولم يبت مُصِرّاً على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، وأجعل له في الظلمةِ نوراً، وفي الجهالة حلماً، ومَثَله في خلقي كمثلِ الفردوس في الجنة)** [3] .

وقد روي عن حاتم الأصم [4] وقد سُئِلَ : كيف تقيم صلاتك ؟ فقال : "أتوضأ فأسبغ الوضوء، ثُمَّ آتي موضع الصلاة بسكينة ووقار، فأُكَبِّر تكبيراً بتوقير ، وأقرأ قراءةً بترتيل ، وأركع ركوعاً بتخشُع ، وأسجد سجوداً بتذلُّل ، وأتمثَّل الجنة عن يميني والنار عن شمالي ، والصراط تحت قدمي، والكعبة بين حاجبي، وملك الموت على رأسي، وذنوبي محيطة بي، وعين الله ناظرة إليَّ ، وأعتبرها آخر صلاة لي، وأتبعها الإخلاص ما استطعت، ثُمَّ أُسَلِّم وأنا لا أدري أيقبلها الله مني أم يردها عليَّ "[5] .

---

(١) المؤمنون : ١ - ٢

(٢) انظر : سيد سابق ، إسلامنا ١١٢ - ١١٥

(٣) رواه البزار .

(٤) توفي - رحمه الله - سنة سبع وثلاثين ومئتين .. وقيل إنَّ الإمام أحمد بن حنبل خرج إلى حاتم ورحَّب به . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١١ مؤسسة الرسالة .

(٥) انظر : القرضاوي ، العبادة في الإسلام .

وممّا لا شكّ فيه أنّ أداء الصلاة على هذا الوجه الأكمل يجعل مَن يؤديها ملاكاً على الأرض، يمشي بين الناس بالخير، ويفيض الخير من بين يديه، يألف ويُؤْلَف . يشعر بأنَّه أخ لأخيه المسلم، ويستشعر أهمية النظام في تسوية الصفوف، وتصفية النفوس وتسويتها، ثُمَّ أهمية الطاعة والانقياد لله في جماعة، خلف إمام يكبِّر إذا كَبَّرَ، ويركع إذا ركع، ويسجد إذا سجد، ويرفع إذا رفع ..

وهكذا في كُلِّ صلاته ، ثُمَّ يستشعر أنَّه عضو في الجسد المسلم حينما يتلو قوله تعالى **{ إياك نعبد وإياك نستعين }** بنون الجماعة في الفعلين (نعبد، ونستعين)، ثُمَّ يطلب له ولإخوانه المؤمنين الهداية: **{اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين }** (1).

ثُمَّ وهو في تشهده يستحضر تلك الصلة فيقول بعد أن يسلم على النبي ﷺ .. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثُمَّ حينما يفرغ من صلاته مختتماً إياها بقوله : السلام عليكم ورحمة الله ..

إنَّ في صلاة الجماعة استشعاراً باتحاد المسلمين وتضامنهم .. ويد الله مع الجماعة ..

ولذلك وردت في فضل صلاة الجماعة والحث عليها ، أحاديث كثيرة لِمَا لها من فضل ، فقد رُوِي أنَّ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله ... (**ورجلٌ قلبه معلَّق بالمساجد ...**)، وفي رواية الإمام مالك (**ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**)(2).

ويقول الإمام النووي في شرح ذلك : إنَّه شديد الحب لها ، والملازمة للجماعة فيها ، وليس معناه دوام القعود في المسجد .

---

(1) الفاتحة : ٥ - ٧

(2) رواه مسلم . ورواه الإمام مالك .

ويقول العلاَّمة العيني مبيناً ما يستفاد من قوله ﷺ هذا: " وفيه فضيلة من يلازم المسجد للصلاة مع الجماعة، لأنَّ المسجد بيت الله، وبيت كل تقي، وحقيق على المزور إكرام الزائر ، فكيف بأكرم الكرماء " .

إنَّ المحافظة على أداء الصلاة في جماعة ، من أعظم القربات إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولها الثواب الجزيل عند الله ، قبل أن يشرع فيها ، حيث يكتب الله له الأجر في الذهاب العودة .

فقد روى مسلم عن أُبَيّ بن كعب ﷺ في قصة رجل من الأنصار والذي كان لا تخطئه الصلاة مع الجماعة ، ولا كان يرغب في أن يكون بيته بجوار المسجد أنَّه قال للنبي ﷺ : ما يسرني أنَّ منزلي إلى جنب المسجد ، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إلى أهلي، فقال ﷺ (**جمع الله لك ذلك كله**) [1] .

وممَّا يدل على فضل المشي إلى المسجد لأداء الصلاة فيه مع جماعة، قوله ﷺ في رواية مسلم عن أبي هريرة ﷺ (**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟**) قالوا : بلى يا رسول الله . قال : (**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط**) [2] .

وفي رواية الإمام مالك (**فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**)[3].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ (**من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة، وخطوة تكتب له حسنة ، ذاهباً وراجعاً**) [4].

---

(١) رواه مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الموطأ .
(٤) المسند .

والمصلي في جماعة أجره كأجر الحاج ، فقد روى الإمام أحمد ، والإمام أبو داود عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (**مَن خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة ، فأجره كأجر الحاج المحرم**) [1].

ويبشر رسول الله ﷺ المشائين في الظلم إلى المساجد بتلك البشارة العظمى . فقد روى الإمام أبو داود عن بريدة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (**بشِّر المشَّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**) [2].

ثُمَّ إنَّ صلاة الجماعة فيها مضاعفة الأجر، فقد روى الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ سمع النبيُّ ﷺ يقول: (**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمسٍ وعشرين درجة**)[3]، وجاء في رواية أنها تفضل بسبعٍ وعشرين درجة .

وقد ضرب لنا صحابة رسول الله ﷺ المثل في حرصهم على صلاة الجماعة ، وكذلك كان سلف الأمة الصالح . فقد ذكر الإمام ابن المبارك عن عدي بن حاتم ﷺ قال : " ما دخل وقت صلاة قط حتى أشتاق إليها " .

وذكر الحافظ الذهبي عنه أنَّه قال : " ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلاَّ وأنا على وضوء " .

وكان سعيد بن المسيب يحضر المسجد قبل الأذان ، واستمر على ذلك مدة لا تقل عن ثلاثين سنة .

فقد روى الإمام ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: ما أذَّن المؤذِّنُ منذ ثلاثين سنة إلاَّ وأنا في المسجد.

هذه هي الصلاة ، والصلاة في جماعة، ومنها يتبين أثرها في المجتمع، وفي وحدة المسلمين .

---

(١) الإمام أحمد . وأبو داود .
(٢) رواه الترمذي ، وأبو داود ، وأحمد .
(٣) متفق عليه . ورواه النساي ، وأحمد ، ومالك .

وقد أفاض كثيرٌ من العلماء في هذا المجال، ومن ذلك قول المودودي: "وفي الجماعة حكم دقيقة، ومصالح عظيمة للمسلمين، منها ما هي اجتماعية وخلقية ، كالوحدة والاجتماع، والتعاون، والتعارف.

وقد بحث علماء المسلمين وحملة الأقلام ، وأفاضوا فيها ، ومنها ما هي أدق ، ولم يفطن لها كثيرٌ من الباحثين والكُتَّاب العصريين ، ومن ذلك:

١ - أنَّ لاجتماع المسلمين راغبين في الله ، راجعين مسلمين وجوههم إليه خاصية عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمات، وهذا هو السر في دعاء الاستسقاء ، وفي الجمع ، والحج .

٢ - ومنها التشجيع على العبادة ، والمحافظة على الصلوات ، والتنافس في إحسانها وإتقانها، والإكثار منها، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد أو خلل.

٣ - ومنها إنَّ إخلاص بعض المخلصين، وإخباته وخشوعه يؤثر في الجماعة كلها، ويوقظ النفوس الجامدة، ويحرك الهمم الفاترة، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع .

٤ - ومنها النظام والتسوية [١].

أمَّا صلاة الجمعة فلها مزيد فوائد ، حيث شرع لها التكبير والغسل والسواك والطيب والخطبة ، وأن تكون في مسجدٍ جامعٍ ، ولا تتكرر المساجد إلاَّ عند الحرج . وذلك ليجتمع المسلمون في مكانٍ مرّةً واحدة في كُلِّ أسبوع فيكون ذلك أدعى للائتلاف والاتحاد ، وأبعد عن التحريف والفساد .

وكذلك الشأن في صلاة العيدين، فالأصل فيها أن تكون في مكان واحد في البرية ليجتمع المسلمون مرَّتين في السنة، شأنهم كل أسبوع في الجمعة، وذلك لتظهر شوكتهم، وتُعلَم كثرتهم، ولذلك استحب خروج الجميع حتى

(١) الأركان الأربعة للمودودي ٦

الصبيان والنساء وذوات الخدود والحيَّض – ويعتزلن المصلَّى – ويشهدن دعوة المسلمين . ولذلك كان النبيُّ ﷺ يخالف في الطريق ذهاباً وإياباً ، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين [1].

ثُمَّ إنَّ الله قد أكَّد تأكيداً شديداً على أن يؤدي المسلمون فريضة الصلاة جماعة ، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كُلِّ أسبوع بالجماعة على الوجه الخاص . فالصلاة جماعة – كما أسلفنا – تنشئ الاتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين، وتجعل منهم كتلة متراصة ، فإنَّهم حينما يجتمعون ويقنتون لربهم، ويسجدون له ويركعون، معاً، تأتلف قلوبهم، وينشأ فيهم الشعور بأنهم أخوة فيما بينهم. ثُمَّ إنَّ الصلاة في جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين أنفسهم، وتربيهم على النظام والانضباط، والمحافظة، وتنشئ فيهم المواساة والتراحم والمساواة والائتلاف ، فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، وأعلاهم وأدناهم ، يقومون جنباً إلى جنب، فلا شريف ولا دني ، ولا رفيع ولا وضيع [2] .

تلكم هي الصلاة . وهذه أسرارها وحكمها ، وهذا أثرها في وحدة المسلمين .. فهل يقيمها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها كما أمرهم بها ربهم ؟! وهل يستفيدون من آثارها ؟!

ثانياً : أثر الزكاة :

لعلَّ من نافلة الحديث أن نقول : إنَّ المالَ مُهِمٌّ غاية الأهمية للأفراد والجماعات، وأنَّه قوام الحياة وأساسها ، وعليه تقوم نهضات الأُمم ، وتتقدَّم

---

(١) حجة الله البالغة ٢٣/٢

(٢) مبادئ الإسلام للمودودي ١١٧ ، الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت ٧٨-٨٧

الحضارات به، إذا استخدم على الوجه المشروع ، فذلك أمرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى بيان، ويكفي أنْ يصفه القرآن الكريم بأنَّه قيام الحياة ، وينصح بالتوسُّط فيه إنْ ملكه المرء فلا يسرف حتى يقف عاجزاً عن التصرُّف، ولا يقتر حتى يتعرَّض للسخط والملامة . قال تعالى : **{ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما }** (1) .

ويقول جلَّ شأنه **{ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كُلَّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً }** (2) .

ويثني على فريقٍ من عباده بالتوسُّط في النفقة بين الإسراف والتقتير، وهم عباد الرحمن فيقول سبحانه **{ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما }** (3) .

ولَمَّا كان للمال هذه الأهمية في إعداد العدَّة ، وأخذ الأهبة ، كان الجهاد بالمال مقدَّماً في القرآن الحكيم على الجهاد بالنفس، قال تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليمٍ * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون}**(4).

وكان للإنفاق في سبيل الله امتيازها عن الإنفاق في وجوه الخير الأخرى بزيادة أجرها ، ومضاعفة ثوابها ، يقول تعالى **{ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أنبتت سبع سنابل في كُلِّ سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم }** (5).

---

(1) النساء : ٥
(2) الإسراء : ٢٩
(3) الفرقان : ٦٧
(4) الصَّف : ١٠-١١
(5) البقرة : ٢٦١

ثُمَّ كان للمال الأهمية البالغة في دفع الحاجات وتفريج الكربات بإطعام الجائع ، وكسوة العاري ، وفكّ ضائقة المحتاج ، والتيسير على المعسر، ومسح دمعة اليتيم والمحروم . فإنَّ الله تعالى أوصى بالبذل في هذه الوجوه، وفرض من ذلك نصيباً معلوماً في أموال الأغنياء يُرَدّ على الفقراء ، وسَمَّى ذلك زكاةً تارة ، وصدقةً تارة ، مشيراً بهذه الأسماء إلى أمور اتّسم بها البذل والإنفاق في الإسلام ، لأنَّ الزكاة لغة التطهير والنماء . وهذا الجزء القليل الذي يبذله المؤمن الغني من ماله يطهر صاحبه من رذائل الشُّحّ والبخل ، وقلة المبالاة بالناس ، وعدم الاهتمام بهم ، ثُمَّ يحليه بطائفة من الأخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة ، كالجود والسخاء والإيثار وحب الخير للناس ورعاية المجتمع ، قال تعالى **{ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سكنٌ لهم والله سميعٌ عليم }**[1] .

وسمَّاه الله صدقةً لأنَّ بذل المال لله ، وابتغاء مرضاته دليل الإيمان وآية اليقين، وأمارة التصديق، قال عليه الصلاة والسلام: **(والصدقة برهان)**[2]

والصدقات في الإسلام تقوم بوظائف شتَّى ، لذلك كان القرآن الكريم حريصاً على بيان مصارفها بياناً قاطعاً ، قال تعالى **{إنَّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليمٌ حكيم}**[3].

---

(١) التوبة : ١٠٣

(٢) جزء من حديث رواه مسلم .

(٣) التوبة : ٦٠

إنَّ الصدقات شُرِعَت إذاً سَدّاً لحاجات الفقراء والمساكين ، وتفريجاً لكرب المحتاجين ، وتثبيتاً للإيمان في القلوب ، وتحريراً للرقاب من ذلّ الرِّق ، وإعزازاً لدين الله ، وإعلاءً لشأنه ، وذوداً عن حرمات الإسلام [1] .

وهذا هو أحد جوانب الصدقات ، وهو جانب العطاء . أمَّا جوانبها الأخرى فمتعدِّدة ، وكلها تهدف إلى إشاعة الخير والمحبة وانتفاء الأحقاد والضغائن .

ولذا اعتبرت الزكاة فريضة من فرائض الإسلام ، وركناً من أركان الدين، وقد شرعت لحكمٍ كثيرة، منها ما هو نفسي، ومنها ما هو خلقي، وكلاهما يؤدي إلى اجتماع شمل المسلمين، وشعور كل واحد بحاجة أخيه إليه.

الحكم النفسية للزكاة :

إنَّ الزكاة – كما عرفنا – عطاء وبذل ، ومواساة ومعاونة ، والنفس بطبيعتها تهتز للكرم ، وتفرح بالجود ، وتجد الراحة والاطمئنان في مواساة الغير ، وإدخال السرور عليه .

ومعاونة المعوذين دون رغبة في ثواب ، أو رهبة من عقاب ، وكما أنَّ المعطي يهتز للجودِ والندى ، فإنَّ الآخذ لا يقل عنه فرحاً واغتباطاً. سُئِلَ رسول الله ﷺ عن فضل الأعمال فقال: **(إدخال السرور على المؤمن)**. قيل: وما إدخال السرور على المؤمن ؟ قال: **(سد جوعته ، وفك كربته ، وقضاء دينه)** [2].

---

(١) من بحث للدكتور علي عبد اللطيف ، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثاني للدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣هـ .

(٢) رواه أحمد .

أثرها الأخلاقي :

والإنسان – بطبعه – يحب المال ، وهذا الحب قد يدعو صاحبه إلى البخل والحرص والجشع والأنانية والأثرة وسائر الرذائل الخلقية ، وهذه الصفات تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، وإلى هذا المعنى يشير الرسول ﷺ فيقول : (**أدوأ الداء البخل**) [١] . ويقول : (شر ما في المرء شُحٌّ هالعٌ **وجبنٌ خالع**) [٢] .

ولا يتخلَّص المرء من هذه الرذائل إلاَّ بالتمرين على البذل والدربة على العطاء ، ومن ثَمَّ كانت الزكاة فريضة إجبارية لا يملك المرء أن يتخلَّص منها. وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة { **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكِّيهم بها ...** } [٣] .

على أنَّ مغالبة النفس، والانتصار عليها بإخراج المال المحبوب لها فيه دليل على قوة الإيمان ، وكمال اليقين ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : (**الصدقة برهان**) [٤]. أي دليل على قوة الإيمان والإرادة .

وإذا انتصرت النفس على هواها ومحبوبها مرة بعد مرة ، أصبحت مذللة خاضعة لأوامر الله ، وبعيدة عن الاندفاع العاطفي .

آثارها الاجتماعية :

والفقراء يمثلون أكثرية من أفراد المجتمع ، ولابُـدَّ من رعاية هؤلاء المساكين والعجزة، والصِّغار، والمحافظة على إنسانيتهم وكرامتهم، ولا سبيل

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه أبو داود ، وأحمد .
(٣) التوبة : ١٠٣
(٤) رواه مسلم .

إلى ذلك إلاَّ بإخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء، حتى يكفي هؤلاء، ليصبحوا أعضاء نافعين، ومواطنين صالحين. وقد يكون فيهم من هو أوفر ذكاءً وأقدر على النهوض بالأعمال الجسام ، إذا وجد ما يقوم بحاجته الضرورية من الطعام والملبس والمأوى .

والجماعة التي ينتشر فيها الفقر ، وينشب أنيابه فيها ، تشتعل فيها العداوة والبغضاء ، وتكثر الجرائم ، وتتفكَّك الأواصر ، فيهتز كيان الأُمَّة بما يشيع فيها من تقاطع ، وتتعرَّض لرواج المذاهب المتطرفة الهدَّامة ، ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلاَّ بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذي فرضه الله، وجعله أمانة في يد الأغنياء، يقول سبحانه **{وأنفقوا مِمَّا جعلكم مستخلفين فيه}**[1] .

ثُمَّ إنَّ الزكاة تقوي الصلات بين الأغنياء والفقراء ، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير ، وتنمية المال ، وتقوية الأواصر .

وهي الضمان الاجتماعي الذي تكفل التوازن بين الطبقات ، وتؤدي إلى وحدة المسلمين ، فكل واحد أخ للآخر ..

إنَّ الزكاة إذاً هي لمصلحة الجماعة والمجتمع ، وهي كفالة ضرورية له، حيث يسد حاجات الفقراء البدنية ، وتهيئ لكل عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التي يستطيع القيام بحقوق الله وحقوق النفس والوصول إلى الكمال المطلوب والغاية المطلوبة من كُلِّ فرد مسلم [2] .

وقد عبَّر الدهلوي عن ذلك التضامن في بيان المصلحة الثانية في تشريع الزكاة فقال : " ومصلحة ترجع إلى المدنية ، وهي أنَّها تجمع لا محالة الضعفاء وذوي الحاجة ، وتلك الحوادث تغدو على قومٍ وتروح على آخرين،

---

(١) الحديد : ٧

(٢) العبادة في الإسلام ٢٥٨

فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعاً، وأيضاً فنظام المدنية يتوقف على مال يكون به قوام معيشة الحفظة الذابّين عنها، والمدبرين السائسين لها، ولما كانوا عاملين للمدنية عملاً نافعاً، مشغولين به عن اكتساب كفافهم، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها".

وكما أشار إلى الحكمة من مشروعية الزكاة ، بَيَّن الحكمة من تعيينها وتحديد مقاديرها وأوقاتها ، وذلك أيضاً لما له من صلة وأثر في تحقيق التضامن بين المسلمين فقال : " ثُمَّ مَسَّت الحاجة إلى تعيين مقادير الزكاة ، إذ لولا التقدير لفرَّط المفرِّط ، ولاعتدى المعتدي ، ويجب أن تكون غير يسيرة، فلا تقع موقعها ، ولا ثقيلة فيعسر عليهم أداؤها ، وإلى تعيين المدة التي تجبى فيها الزكاة ، ويجب أن لا تكون قصيرة يسرع دورانها فتعسر إقامتها فيها، ولا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم ، ولا تدور على المحتاجين والحفظة إلاَّ بعد انتظار شديد " [١].

وبَيَّن ابن القيم أنَّ الهدف من هذا التحديد هو مصلحة الجميع فقال : إذ وجوبها كل شهر ، وكل جمعة يضر بأرباب الأموال ، ووجوبها في العمر مرة ، ممَّا يضر بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة [٢].

ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون فيتكافئوا فيما بينهم ، حتى لا يبقى فيهم عارٍ ولا جائعٍ ولا مهين ، ويكفل غنيهم فقيرهم ، ويعاف فقيرهم أن يبسط يده إلى الغني بالاستمداد ، ولا ينفق أحدٌ أمواله في البذخ والترف ، ويعلم أنَّ في أمواله حقّاً لليتامى والأيامى والفقراء والمساكين من أبناء أمته ، وأنَّ فيها حقاً للذين يقدرون على العمل ، ولكن لا يجدون إليه سبيلاً لما يعوزهم من المال ، لأنَّ فيها حقاً للأطفال الذين فطروا على الذكاء

---

(١) حجة الله البالغة ٢/٢٩-٣٠

(٢) زاد المعاد ١/٢٤٦

والفطنة ، ولكن لا يقدرون على تحصيل العلم بسبب فقرهم ، وإنَّ فيها حقاً للعجزة الذين لم يعودوا قادرين على العمل ، فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق ظالم ، وأي ظلم أشنع من أن يكون عندك من الثروة الضخمة وأسباب الترف والرفاء ما لا يكاد يأتي تحت الحصر . وترفل في قصورك الشامخة ، وتنعم بركوب سيارتك الفاخرة ، وحولك ألوف من إخوانك الفقراء الذين لا يكادون يجدون سبيلاً إلى كسرة من الخبز ، وألوف من القادرين على العمل يهيمون على وجوههم عاطلين .

إنَّ الإسلام يبغض مثل هذا الرجل ، ويحارب عاطفة أثرته ، وما هذه الأثرة إلاَّ من شيمة الكفار الذين تعلمهم مدنيتهم أن يدخروا عندهم كل ما تصل إليه أيديهم من الثروة ، ويرابوا بها ، ويجلبوا منها إلى أنفسهم كُلَّ ما في أيدي الناس الآخرين .

أمَّا المسلمون فيعلمهم دينهم أنَّه إذا وهب الله لكم من الرزق ما زاد عن حاجتكم فلابُـدَّ أن تؤدوا حقه، وأعطوه إخوانكم الذين يفقدونه، وليسدوا حاجاتهم، ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم كما تكسبون معيشتكم أنتم[1].

إنَّ فرض الإسلام للزكاة ودعوته إلى الإنفاق يعتبر أمثل الحلول وأفضلها للمشكلة العالمية التي عجزت المجتمعات عن حلها ، وتخبَّطت بين الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية ، وعجزت بهذا عن الحل ، وقامت الثورات ، ونشبت الحروب ، وماتت القيم الإنسانية ، والأخوة البشرية ، في حين عاش المجتمع الإسلامي – في ظل تطبيق شريعة الله عزَّ وجلَّ – في أمنٍ وسلام ، وغنى ورخاء ، وأخوة ومحبة ، لأنَّ الإسلام بهذا التشريع وقف عند الحد الوسط الذي يقي أبناءه شر الطغيان العالمي ، المفسد الذي تتكدس

(١) مبادئ الإسلام ٢٠ ـ ٢١ ، الإسلام : سعيد حوى ١١٥ ـ ١٢٤

به الأموال عند بضعة أفراد من الأمة ، مع حرمان كثرتها الغالبة ، وشر الفوضى الماكرة المخربة التي يضيع بها جهود الأفراد (1).

إنَّ الزكاة في نظر الإسلام، ليست إلاَّ صرف بعض أموال الأُمَّة ممثلة في أغنيائها، إلى الأمة نفسها ممثلة في فقرائها.

وبعبارةٍ أخرى: ليست إلاَّ نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهي اليد المشرفة التي استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرُّف فيه، وهي يد الأغنياء. إلى اليد الأخرى، وهي اليد العاملة الكادحة، التي لا يفي عملها بحاجتها أو التي عجزت عن العمل ، وجعل رزقها فيها، ومنه، وهي يد الفقراء. ولعلَّ هذا ما يوحي به القرآن الكريم حيث يقول سبحانه:

{ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم }(2) .

وحين يقول تعالى بوجهٍ عامٍّ **{ وأنفقوا ممَّا جعلكم مستخلفين فيه}**(3). وما اليد المعطية ، واليد الآخذة إلاَّ يدان لشخصية واحدة ، كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ، ولا خادم فيها ولا مخدوم ، وإنَّما هي خادمات لشخصية المجتمع الذي لا قوام له ولا بقاء إلاَّ بتكامل هاتين اليدين على خيره وبقائه (4) .

ولا يقتصر التشريع الإسلامي على فريضة الزكاة فقط ، بل حثَّ المسلمين على البذل والعطاء وكل ما تجود به نفسه من صدقات ابتغاء مرضاة الله ، وما أوجبه عليهم من كفَّارات ، كل ذلك ليشيع بين أفراد المجتمع الإيثار والتعارف على البر والتقوى والتراحم والترابط .

---

(1) د . محمد نبيل غنايم . من بحث مقدَّم إلى المؤتمر العالمي الثاني بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣هـ .
(2) النور : ٣٣
(3) الحديد : ٧
(4) الإسلام عقيدة وشريعة .

وإذا كان المرء بالشهادتين يدخل في الإسلام ، فإنَّه بالصلاة قد أوفى الجانب المهم في عهده مع الله ، وهو بالزكاة يبدأ عهداً جديداً مع إخوانه في الدين وشركائه في المجتمع ، عهداً ترفرف عليه رايات المحبة ، ويغمره التعاون والتراحم .

وهكذا تكون الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، عاملاً حيوياً بَنَّاءً في صرح الوحدة الإسلامية .

ثالثاً : أثر الصيام :

والصيام هو الركن الثالث من أركان الإسلام ، وهو – كالركنين السابقين – عامل مهم من عوامل تكوين الوحدة بين المسلمين ، لأنَّ توطيد المشاعر والأحاسيس بين المسلم وأخيه هو أول طريق لم الشمل وتوحيد الصف ، وجمع القلوب ، وبناء الأجساد ، وترابط الأمَّة .

ولذا خاطب الله سبحانه وتعالى عباده بقوله **{ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلَّكم تتقون }** [1] .

وبالتأمل في هذه الآية الكريمة ، يتبيَّن لنا الحكم السامية من هذه العبادة، فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا أنَّه فرض الصيام على هذه الأُمَّة كما فرضه على من تقدمها من الأمم ، ليعد النفوس ويهيئها لكل خيرٍ وبرّ ، وذلك أنَّ الصائم يترك شهوته ، وأحب الأشياء إليه ، مع قدرته عليها – امتثالاً – لأمر الله، ومسارعةً إلى مرضاته. وهذا من شأنه أن يورث خشية الله ، وينمي ملكة المراقبة ، ويوقظ الضمير، ويرقق المشاعر والأحاسيس، ثُمَّ إنَّ الصيام يقوي الإرادة ويعوِّدها على الصبر والاحتمال ، فيستطيع الإنسان مواجهة

(١) البقرة : ١٨٣

شئون الحياة ، ومكافحتها بشجاعة ، فلا تثنيه صعابها، ولا تتغلّب عليه أحداثها .

وبقدر ما تقوى الإرادة ، يضعف سلطان العادة ، وبذلك تتاح الفرص لهجر الكثير من العادات السيئة التي تعود عليها قبل الصوم من كثرة المشروبات والمطعومات التي تؤدي إلى ضعف البدن وتُذْهِب المال في غير طائل ، وبكفٍ النفس وكبح جماحها يستيقظ الضمير ، وتقوى الإرادة ، ويعظم الإنسان ويشرف ، ويسمو إلى الذروة من الفوز والفلاح .

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُـبِّ الرَّضَـاعِ وَإِنْ تَفْطِمْـهُ يَنْفَطِـمِ
فَاصْرِفْ هَـوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَـهُ
إِنَّ الهَوَى ما تولى يُصْمِ أو يَصِـمِ
وَرَاعِهَا وهي فِي الأَحْوَالِ سَائِمَـةٌ
وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلاَ تُسِمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَـرْءِ قَاتِلَـةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

ويقول ابن القيم : " المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكو به بما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وثورتها ، ويذكرها بما للأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد ، بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء في استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو فيها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقربين " [١].

---

(١) زاد المعاد ٢٥٢/١

أسراره الخلقية :

والصيام ليس مجرَّد الإمساك عن المفطرات ، وإنَّما هو في حقيقته هجر جميع المعاصي والسيئات ، فلا يحل للصائم أن يتكلَّم إلاَّ حسناً ، ولا يفعل إلاَّ جميلاً ، وإلى ذلك يشير الرسول ﷺ في قوله (**الصيام جنة**) (١) . وقد أمر عليه الصلاة والسلام من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه – بالصوم (**فإنَّه له وجاء**) (٢) .

فالصيام جنة : أي وقاية من المنكرات والشرور . وبهذا يكون درساً عملياً في أخذ النفس بالفضائل ، وحملها على الاتصاف بكُلِّ ما هو حسن وجميل وطيب في كُلِّ الحالات ، وبذلك تزكو وتطهر ، ويصبح الإنسانُ مأمولَ الخير ، مأمونَ الشَّرِّ ، فإذا لم يبلغ الصيام بالإنسان هذه الغاية من التهذيب ، فإنَّ صيامه لا وزن له عند الله ، وأنَّه لا حظَّ له من صيامه إلاَّ الجوع والعطش ، يقول ﷺ (**رُبَّ صائمٍ لَيْسَ له من صِيامه إلاَّ الجوع والعطش**) (٣)، كما يقول عليه الصلاة والسلام (**مَنْ لَمْ يَدَع قول الزُّور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**) (٤).

وهكذا تربي عبادة الصوم الإنسانَ المسلم ليكون عضواً نافعاً في جسم الأُمَّة ، لأنَّ الذي يترفَّع عن الدنايا والخسائس ، ويتَّقي الله في كُلِّ أحواله ، هو الإنسان الذي ترقى به الأُمَّة وتسعد ، فاللبنة القوية يقوم عليها البنيان المتين .

وقد استنبط بعض العلماء من النداء القرآني { **يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكم الصِّيام ...** } الآية . أنَّ القرآن يأخذ المؤمنين جميعاً بمسئولية تضامنية

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه ابن ماجه ، وأحمد .
(٣) متفق عليه .
(٤) رواه الترمذي .

في إقامة تلك الأحكام ، والنزول على مقتضياتها في عباداتهم ومعاملاتهم وراء مسئوليتهم الشخصية الفردية ، وبتلك المسئولية التضامنية يسأل المؤمن فيما يختص بهذه الأحكام عن نفسه ، وعن أهله ، وذويه ، وسائر إخوانه المؤمنين ، ولا يرفع عن المؤمن مسئوليتها إلاَّ إذا قام بها فيما يختص بنفسه فصام وصلَّى وحجَّ وابتعد عمَّا حَرَّم الله ، وفيما يختص بغيره فأمر ودعا ، وحذَّر ونهى ، وقد كان هذا من مظاهر الوحدة التي بنى الإسلامُ على أساسٍ منها شرائعَه وأحكامَه .

وليس من ريب في أنَّ النداء بالإيمان أولاً هو أساس الخير ، ومنبع الفضائل، وفي ذكر التقوى آخراً ، وهي روح الإيمان ، وسر الفلاح، إرشاد قوي ، ودلالة واضحة على أنَّ الصوم المطلوب ليس هو مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب ، وإنَّما هو الإمساك عن كُلِّ ما ينافي الإيمان، ولا يتَّفِق وفضيلة التقوى والمراقبة ، وإذن فالذي يتجه إلى غير الله بالقصد والرجاء لا صوم له، والذي يطوي قلبه على الحقد والحسد والبغض لا صوم له ، والذي يعمل على تفريق المسلمين وإضعاف سلطانهم لا صوم له ، ووالذي يحابي الظالمين ويجامل السفهاء ويعاون المفسدين لا صوم له ، والذي يستغل مصالح المسلمين العامَّة ويستعين بمال الله على مصالحه الشخصية ورغباته وشهواته لا صوم له ، وكذلك مَن يمد يده أو لسانه أو جارحة من جوارحه بالإيذاء لعباد الله وانتهاك حرمات الله لا صوم له .

فالصائم الملتزم هو الذي لا يكذب ولا يرتاب ، ولا يشي ولا يدبر في اغتيال أو سوء ، ولا يخادع ولا يأكل أموال الناس بالباطل ، هذا هو معنى الصوم ، الذي يجمع صورته ، وهي الإمساك عن المفطرات ، ومعناه : وهو

تقوية روح الإيمان بالمراقبة . وبهذا يجمع الصائم بصومه ، بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات ، وتحليتها وتزكيتها بالطيبات [1] .

إنَّ الفضائل النفسية ، والفوائد الاجتماعية التي يثمرها الصوم أجَلّ من أن تحصى ، وإذا كان الصوم يثمر التقوى وعِفَّة النفس، واستقامة الجوارح، ويقظة الضمير، ورحمة القلب، وخشية الرب، فإنَّ هذه الفضائل تنعكس على المجتمع كله ، وتنشر بركتها عليه .

والتقوى التي جعلها الله غاية للصيام ، والْجُنَّة التي وصف بها النبي ﷺ الصوم يمكن أن يندرج تحتها كل ما أدركنا وما لم ندرك من حكم الصيام ؛ فليس للتقوى حد تنتهي عنده، أو غاية تنتهي إليها، وكذلك الجُنَّة، قد تكون من التقصير والمخالفات ، وقد يرقى بها صاحبها فتكون من الشبهات، وقد يزداد رقياً فتصبح جُنَّة من الغفلات والخطرات [2].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

" لَمَّا كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله ، ولَمِّ شَعَثِه بإقباله بالكلية على الله ، فإنَّ شَعَثَ القلب لا يلمه إلاَّ الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالفة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام مما يزيده شعثاً، ويشتته في كُلِّ وادٍ يقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعرقله، اقتضت رحمة العزيز العليم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة ، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة " [3] .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ١٠٧-١٠٩

(٢) د . علي عبد اللطيف . مصدر سابق .

(٣) زاد المعاد ١٦٨/١

إنَّ المجتمع الذي يستقيم على شريعة الصوم ، يكون مجتمعاً قوياً في عقيدته ، قوياً في استجابته لأمر ربه ، قوياً بتماسكه وتضامنه وتراحمه ، قوياً بأخلاقه الكريمة وشمائله النبيلة .

وقد اختار الله سبحانه بحكمته البالغة ، شهر رمضان المبارك ليكون موسم الصيام المفروض على المسلمين من كُلِّ عام ، وأشار القرآن الكريم إلى السر في اختيار ذلك الشهر لهذه الفريضة المباركة ، ذلك لأنَّه الشهر الذي أُنْزِلَ فيه خير كتاب على خير رسول ، يقول سبحانه **{ شَهْر رمضان الذي أُنْزِلَ فيه القرآن هدىً للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان }**[1]، وبين الصوم والقرآن صلة وثقى متينة ، ولذلك (**كان ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كُلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فالرسول ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة**)[2] .

لقد أصبح شهر رمضان بما شَرِعَ فيه من صيامٍ ، وسُنَّ فيه من قيامٍ ، وما رُغِّبَ فيه من عبادة وذكر وتلاوة للقرآن الكريم، وبذلٍ وعطاء للصدقات، وصلات البر والإحسان. موسماً من مواسم العبادة المتعددة النواحي المتشعبة الجوانب، تلك العبادات التي تطبع النفوس بطابع الرحمة والخير، وتغمر المجتمع كله بموجة من الحب والود والتعاون والتضامن والتراحم. فإذا هم نفسٌ واحدة في أجسام متباعدة .

يقول الشيخ الدهلوي: " والصوم إذا التزمته أُمَّة من الأمم، سلسلت شياطينها، وفُتِّحت أبواب جناتها، وغُلِّقت أبواب النيران عنها ". ويقول: "وأيضاً فإنَّ اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيءٍ واحدٍ، في زمانٍ

---

(١) البقرة : ١٨٥

(٢) رواه البخاري .

واحد، يرى بعضهم بعضاً، معونةً لهم على الفعل ميسر عليهم، ومشجع إياهم، وأيضاً فإنَّ اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم، وأدنى أن تنعكس أنوار كلهم على من دونهم ، وتحيط دعوتهم من وراءهم ".

" وأيضاً فإنَّ في الصيام آثاراً عظيمة في إعداد المسلمين للعبادات ، وتأهيلهم لجني ثمارها، والانتفاع بخيراتها وبركاتها ، وبالصيام تصبح النفوس مستعدة للخير، راغبة في البر، كارهة للشر، نافرة من الفجور"[1].

وإذا كانت تلاوة القرآن في رمضان عبادة لها ثمارها ، فإنَّ هذه الثمار تكون أزكى وأنمى وأبقى ، إذا كان القلب مستعداً ، والنفس متهيئة ، يقول عليه الصلاة والسلام (**الصيام والقرآن يشفعان للعبد ، يقول الصيام : رَبِّ منعته الطعام بالنهار ، فشفِّعني فيه . ويقول القرآن : رَبِّ منعته النوم بالليل فشفِّعني فيه . قال : فيشفعان**)[2] .

رابعاً : أثـر الحج :

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، قال تعالى **{ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً }**[3].

يقوم المسلم بأداء شعائره امتثالاً لأمر الله ، وإظهاراً للعبودية ، وقياماً بحق الله إنَّه الفريضة التس تستوجب مفارقة المألوفات والعادات ، والمسلم حين يستعد لتلبية هذه الدعوة بالإحرام ، يطهر باطنه بالنية الصالحة ، والتوبة النصوح ، ويطهر ظاهره بالاغتسال ليعلن استجابته لأمر ربه ، مضاعة مكررة ، ولا يزال ذلك شعاره حتى يفرغ من حجه (لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) .

---

(١) حجة الله البالغة ٥٩/١ ، ٣٧/٢

(٢) رواه أحمد .

(٣) آل عمران : ٩٧

وفي الإحرام التمرين العملي على فضيلة المساواة بين الناس ، وفيه كذلك – تذكيرٌ لهم بما كانوا عليه ، وبما سيصيرون إليه في الطريق الذي سبق هذه الحياة، والطور الذي سيعقبها، وأنَّ ما هم فيه من زينة الدنيا وزهرتها إنَّما هو عارية مستردة .

والحج تدريب عملي للمسلم على المبادئ التي جاء بها الإسلام ، فقد أراد الإسلام ألاَّ تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرَّد شعارات أو نداءات ، بل ربطها بعباداته وشعائره حتى تخط مجراها في حياته سلوكاً وتطبيقاً (١) ، بالإضافة إلى حكم وأسرار تتجلَّى عند التأمُّل في أداء بقية مناسك الحج وشعائره .

ومن ذلك أنَّ شعائر الحج تثير في النفس ذكرياتٍ عِذَاباً ، إذ ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وخاتمهم محمَّد ﷺ ، وصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والحج يلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون ، ومائلة للأذهان .

إنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي رفع البيت وإسماعيل ، وهو أول بيتٍ وُضِعَ لعبادة الله في الأرض **{ إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِعَ للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقام إبراهيم ومَن دخله كان آمنا}**(٢) .

{ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّكَ أنت السميع العليم * ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمَّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنَّكَ أنتَ التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم

---

(١) من بحث للدكتور علي عبد اللطيف ، ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثاني للدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣هـ .

(٢) آل عمران : ٩٧

يتلو عليهم آياتك ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم } [1].

ومِنْ ثَمَّ أمر الحنفاء أن يتوجَّهوا إليه كُلَّما توجَّهوا إلى الله في صلاتهم، وأن يتلاقوا عنده كُل عام، يحدوهم الحب في الله، والاجتماع عليه، ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد، وتعظيم شعائر الله. ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول ، وتحن إليه، وتقيم لذلك المعالم الهادية، وتتخذ منها حافزاً، يرقى بحاضرها، وينهض بها إلى حياةٍ أجدى وأزكى .

ولقد جاشت نفسُ رسول الله ﷺ وا نفعلت بهذه الذكريات ، فبكى وهو عند الكعبة وقال : (**يا عمر . هنا تُسْكَب العبرات**) [2] .

والحج نوعٌ من السلوك ، ولونٌ من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى، والاندماج في حياةٍ روحية خالصة تمتلئ فيها القلوب بحب الله ، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره، مثنية عليه ، يقول تعالى **{ الحج أشهرٌ معلومات فمن فرض فيهنَّ الحج فلا رفث ولا فسوقَ ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله وتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب }** [3] .

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أنَّ المرء حينما يدخل في أعمال الحج يجب عليه أن يعيش في جوٍّ من العفاف والأدب العالي ، فلا يتدنى إلى رفث ولا يميل إلى فسوق، ولا ينطق بكلمة طائشة ، أو ينظر نظرة فاحشة.

---

(١) البقرة : ١٣٧-١٣٩
(٢) رواه ابن ماجه .
(٣) البقرة : ١٩٧

كما تشير أيضاً إلى فعل الخير وهو عمل إيجابي يجمل بكل مؤمن أن يهتم به ويحرص عليه .

والحج مؤتمر عام يجمع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التي تعود عليهم بالخيرات والبركات ، سواء كانت منافع روحية أم منافع اقتصادية أم منافع سياسية . كما أنَّ فيه تعارف الشعوب الإسلامية ، وتوحيد غاياتهم التي توجههم الوجهة التي تأخذ بأيديهم إلى حياة العزة والقوة والعلم والعمل بما يفيده بعضهم من بعض ، ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة .

كما يمكن عقد معاهدات واتفاقات في موسم الحج ، ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادي والثقافي مما تحتاج إليه بلاد المسلمين [١] .

وصدق الله العظيم **{ وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتين من كُلِّ فجٍّ عميقٍ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيَّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام }** [٢] .

إنَّها منافع شتى، فالحج موسم ومؤتمر، موسم تجارة، وموسم عبادة، مؤتمر اجتماع وتعارف وتنسيق وتعاون وتآلف .. الحج مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كُلِّ سمة إلاَّ سمة الإسلام، عرايا من كُلِّ شيء إلاَّ من ثوب الإحرام، ولا يميز فرداً عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنساً على جنس. إنَّ عقيدة الإسلام هي وحدها الصبغة " [٣] .

---

(١) سيد سابق : إسلامنا ١٢٠-١٢١

(٢) الحج : ٢٧-٢٨

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن : تفسير سورة إبراهيم ، والحج .

ويقول المودودي : " من منافع الحج أنَّ مكَّة المكرَّمة قد جعلت مركزاً للمسلمين، تهوي إليه نفوسهم من جميع نواحي الأرض، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم، فيشعرون أنَّهم إخوة فيما بينهم، وإنَّهم يؤلِّفون بمجموعهم أُمــَّة واحدة .

فكأنَّ الحج هو عبادة الله تعالى في جانب، ومؤتمر عالمي سنوي يفد إليه المسلمون من جميع نواحي الأرض وأقطارها بالجانب الآخر، فهو أكبر وسيلة، وأنجح طريقة لتربية الأخوة الإسلامية العالمية على الاتحاد والمحبة والتعاون"(١).

إنَّ التضامن والتكافل والوحدة من أبرز أهداف الحج وحكمه ، وذلك أنَّ المؤتمر الإسلامي الكبير الذي ينعقد في الحج ، يجب أن يتدارس فيه المسلمون قضاياهم ومشكلاتهم ، وينظروا فيه شئونهم الاقتصادية في كُلِّ الأقاليم الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم ، ويكون ذلك بتأسيس منظمة إسلامية اقتصادية مهمتها تنظيم التبادل الاقتصادي وسد حاجات المجتمعات الإسلامية وتشجيع العلاقات الأخوية فيما بينهم ، وتوطيد أواصر التعاون ، حتى لا يكون للمستعمر نفوذ ولاسيما في الجانب الاقتصادي الذي يتخذه سبيلاً لاستنزاف ثروة البلاد الإسلامية ، وتثبيت أقدامه فيها ، ثُمَّ الحيلولة بيننا وبين الحصول على ما يحفظ كياننا ويرفع مستوانا (٢) .

إنَّ الحج سبيل إلى الوحدة الشاملة ، وإلى الأُمَّة الواحدة التي تزول فيها الجنسيات ، وتذوب فيها القوميات .

يقول المودودي: " أصبح البيتُ الحرام مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الروحي، والغذاء العاطفي، تقام حوله المناسك ، وتغذى به العاطفة،

---

(١) مبادئ الإسلام ١٢٣-١٢٤

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ١٣٤

وتشعل به مجامر القلوب ، وتشحن به بطاريتها الفارغة ، ويُتَلقّى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كُلّ عام ، يؤدي خراجه من الطاعة، وضريبته من الحب والانقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين، ولجوءه إلى هذا الركن الركين ، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء والزعماء والعظماء والملوك والأمراء والأغنياء والفقراء في وله وهيام، وفقه وحكمة، يثبتون أنّهم مجتمعون على تفرُّق ، متوحّدون على تعدُّد، متركزون على انتشار، أغنياء على الفقر ، أقوياء على الضعف ، ينتشرون في العالم، ويسعون على أرزاقهم ومصالحهم ، وينتسبون إلى أُمَم وسلالات، ويختلفون في الحضارات والثقافات، ويلتقون على نقطة واحدة، وحول نقطة واحدة، وحياتهم كلها طواف وسعي ونسك، وعبادة وإيمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلها منى وعرفات، وأسفار ووقفات ، وإنّما هم في رحلة دائمة وتقدُّم مستمر ، وتعارف متكرر حتى يقضوا نحبهم ، ويلقوا ربهم "[1].

ويقول الدهلوي : " وكما أنَّ الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كُلّ مدة ، ليتميز الناصح من الفاسق ، والمنقاد من المتمرِّد ، ليرتفع الصيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها ، فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموافق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنّما تكتسب بالمصحابة والترائي " .

ثُمَّ قال : " ومنها تحقيق الفريضة ، فإنَّ لكلِّ دولة وملة اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، وتستفيدوا أحكام الملة ، ويعظموا شعائرها ، والحج عرضة للمسلمين ، وظهور شوكتهم، واجتماع جنودهم ، وتقوية ملّتهم "[2].

---

(١) الأركان الأربعة ٢٦٠

(٢) حجة الله البالغة ٥٩/١ ، ٤٢/٢

وهكذا نرى في الحج معنى الوحدة جلياً كالشمس ، وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول، لا إقليمية ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة ، إنَّما هم جميعاً مسلمون، بربٍّ واحد يؤمنون ، وببيتٍ واحدٍ يطوفون ، ولكتابٍ واحدٍ يقرأون ، ولرسولٍ واحدٍ يتبعون ، ولأعمالٍ واحدة يؤدون ، فأيّ وحدة أعمق من هذه وأبعد غوراً .

ونشاهد أكبر مؤتمر عالمي يجمع المسلمين من جميع أنحاء العالم ، جمعتهم رابطة الإسلام ، ووحَّدت بينهم كلمة الإيمان (في هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم ورجال الإصلاح ورجال السياسة) فما أجدرهم وقد التقوا على هدفٍ واحدٍ أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط وأحسن الوسائل ، ليبلغوا الأهداف ويحققوا الآمال [1] .

وهكذا يتَّضِح لنا أنَّ العبادات في الإسلام – بمفهومها الصحيح – وفق ما شرع الله – إذا أدَّاها المسلمون – بمفهومها العام والخاص ، على وجهها الصحيح . من أهم عوامل الوحدة بين الأمة الإسلامية ، حيث توحد مشاعرهم وقلوبهم وأهدافهم وغاياتهم ، ويكونون حينئذٍ خير أُمَّةٍ أُخْرِجَت للناس لأنَّهم استجابوا لندائه تعالى : **{ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين مـــن حرجٍ مِلَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بحبل الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير }** [2] .

(١) العبادة في الإسلام ٢٨٩-٢٩٣
(٢) الحج : ٧٧ – ٧٨

المبحث الثالث

الاتفاق على أصول التلقي

ذكرنا – آنفاً – أنَّ عوامل وحدة المسلمين في العقيدة الصحيحة، والعبادة الصحيحة، وهما يؤديان إلى نتيجة ضرورية، وهي الاتفاق على أصول التلقي، لتكون هناك وحدة التشريع التي تجمع الأُمَّة حول مصدرٍ واحد، وهو كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، وهذا بدوره يؤدي إلى التآلف والتآزر .

لأنَّه إذا اتحدت مصادر التشريع ، اتحد التشريع نفسه ، وإذا حدث اختلاف فلن يتجاوز الفروع بأي حالٍ من الأحوال .

ووحدة التشريع في أصوله ، تعني وحدة العمل والسلوك ، لأنَّ الشريعة هي التي توحد عمل المسلمين وخططهم وسلوكهم في مجالات الحياة المختلفة، لأنَّ حكمها سيكون بالنسبة لكُلِّ عملٍ وسلوكٍ واحداً ، فإذا التزمه المسلمون جميعاً كانت وحدة العمل والجهد والطاقات – وتلك مسألة خطيرة – بعد وحدة الفكر [1].

هذا هو المثل الأعلى الإسلامي ، وحدة وعقيدة ، تنطوي على وحدة مصادر التشريع وجزئياته تبعاً لذلك .

وما تفرَّقت الأُمَّة واختلفت إلاَّ حينما ترك هذا الأصل الموحى به من عند الله ، وحاد كثيرٌ من أقطارها – للأسف – عن الصراط المستقيم ، فتأثروا بغير المسلمين في مفهومهم للدين، وأنَّه مقصورٌ على الاعتقاد بالقلب،

---

(١) د . جمال الدين محمود : قضية العودة إلى الإسلام في الدولة والمجتمع ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٣

أو أنَّ العقيدة أمر فردي شخصي، وأنَّ الحياة بكل أبعادها السياسية، والاقتصادية، والتشريعية، والتربوية، والأخلاقية، تقع خارج سلطان القرآن والسُنَّة، وهذا خطأٌ فادح، ومنكرٌ ظاهر، وجاهليةٌ نكراء، وفهمٌ سقيمٌ للإسلام، واتباعٌ للهوى، وتأثرٌ بالريح العاصف، ريح الاتجاهات والنظريات الفكرية الإلحادية الهدَّامة للدين وللمجتمع . والتي تشيع بين أفراد الأُمَّة الفرقة، وتبثُّ العداوة والبغضاء.

إنَّ الاعتصام بحبل الله يفرض على المؤمنين بالله ورسوله أن يُحكِّمُوا كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فيما بينهم ، وأن تكون أصول تلقيهم ما شرعه الله في كتابه، وبيَّنه رسوله ﷺ **{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثُمَّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مِمَّا قضيت ويُسلِّموا تسليماً }**[(١)]

وبهذا تفرَّد المجتمع الإسلامي ، تفرَّد بنظامه الخاص ، لأنَّه مجتمع من صنع شريعة خاصة ، جاءت من لدن الله ، فهذه الشريعة التي وجدت كاملة منذ نشأتها غير مُدْرَّجة تدريجاً تاريخياً ، هذه الشريعة هي التي أوجدت هذا المجتمع وأقامته على أسسه التي أرادها الله لعباده ، لا التي أرادها بعض هؤلاء العباد لبعض، وفي ظل هذه الشريعة تم نمو المجتمع الإسلامي، ووجدت ارتباطات العمل والإنتاج والحكم، وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية، ومبادئ السلوك وقوانين التعامل، وسائر مقومات المجتمع الخاصة التي تحدد نوعه ، وترسم له طريق النمو والتطور، ذلك على الضد من كُلِّ النظم الاجتماعية التي عرفتها أوربا والتي نشأت نشوءاً ذاتياً وفق مقتضيات أرضية ، وثمرة للصراع الداخلي بين الطبقات، وبسبب الانحراف عن الدين وطغيان الكنيسة وفساد رجال الدين، وللاحتكام الطبيعي بين علاقات الانتاج القائمة وطرق الانتاج المتجددة، وللمصالح المتعارضة بين

---

(١) النساء : ٦٥

التكتلات المتنوعة داخل جسم الجماعة البشرية ، ممَّا يؤثر في طبيعة القوانين ويشكل الحكومات ، والأفكار الاجتماعية والأخلاقية السائدة .

" إنَّ الفكر الغربي يقرر أنَّ الدين هو العلاقة بين الله والإنسان فحسب وأنَّها علاقة شخصية ، وخاصة ، لا صلة لها بالمجتمع ، ولا تؤثر في تطور الحركة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ، بينما يقرِّر الفكر الإسلامي أنَّ الدين بمعنى الإسلام هو دين ونظام مجتمع ، وأنَّه يتجاوز العلاقة بين الله والإنسان إلى العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والمجتمع ، وأنَّه نظام شامل متكامل ، ترتبط فيه العبادة والعقيدة بممارسة الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، وأنَّ الأخلاق عامل جامع بين هذه الأمم "(١) .

ومن ثَمَّ كانت جميع الأحكام والقوانين التي تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها، غير منطبقة على المجتمع الإسلامي لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم ، ولاختلاف القاعدة التي ترتكز عليها نشأته ، ولاختلاف القانون الذي يحكم نموه وتطوره .

ومن هنا يختلف المجتمع الإسلامي – ويجب أن يختلف – عن هذه المجتمعات وتلك الأنظمة، لأنَّه المجتمع الإسلامي ، الذي صنعته الشريعة، ولم يصنع الشريعة ..

الشريعة هي التي صبغت المجتمع الإسلامي بصبغة الله ، هي التي حدَّدت له سماته ومقوماته ، وهي التي وجَّهته وطوَّرته ، ولم تكن الشريعة مجرَّد استجابة للحالات المحلية الموقوتة ، كما هو الشأن في التشريعات الأرضية إنَّما كامن منهاجاً إلـهياً لتطوير البشرية كلها ، وصياغتها صياغة معينة ، ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق ذلك المجتمع المنشود ، وهذه السمات ذات أثر حاسم في تحديد طبيعة المجتمع الإسلامي وتميزه عن جميع

---

(١) أنور الجندي : الموسوعة الإسلامية العربية ٤٢/٦

المجتمعات التي نشأت نشوءاً ذاتياً، وأنشأت قوانينها وفق التغيرات المحدودة، التي تنال حياتها يوماً بعد يوم .

إنَّ مهمة التشريع في المجتمع – والتشريع هو المظهر البارز لتطور المجتمع لأنَّه تلبية مستمرة لهذا التطور – كانت دائماً محكومة بأصلٍ ثابتٍ هو الشريعة الإسلامية . ومع أنَّ الفقه الإسلامي كان تلبية مستمرة لبروز الحاجات في المجتمع ، وتجدد الارتباطات ، إلاَّ أنَّ نمو الفقه الإسلامي لم يكن طليقاً ، لأنَّه كان دائماً مشدوداً إلى ذلك الأصل الثابت ، محافظاً على المبادئ الأساسية والسمات الأولية ، التي أرادها الله لها على الدوام في المجتمع الإسلامي .

بذلك تقوم الشريعة دائماً مقام السياج الواقي الذي يسمح للمجتمع الإسلامي بالنمو والتجدد ، ولكن داخل هذا السياج ووفق مقدمات أصيلة ثابتة، وبذلك يظل الطابع الأصيل للمجتمع الإسلامي ، واضحاً مميزاً، بينما المجتمعات الغربية كان في وسعها أن تنمو وفق المؤثرات الواقعية غير متقيدة بأصلٍ ثابتٍ ، لأنَّ المسيحية لم تكن يوماً ما نظاماً اجتماعياً، وذلك لخلوها من الشريعة التي تتولى تنظيم المجتمع وفق نظرية محددة [1] .

ولكي نجمع الأمة المسلمة كلها في وحدة، ولكي نجعلها متآلفة، ينبغي أن نوحد تشريعها ، ومعنى ذلك أنْ يكون هذا التشريع محتوياً على ما يلي:

١ – أن يجد القبول النفسي والقناعة من أفراد الأُمَّة .

٢ – أن يجد فيه الفرد تحقيق أمنه واستقراره واطمئنانه .

٣ – أن يتناول بالإشباع كل شئون حياته .

٤ – أن يكون تناوله لشئون الأفراد وأفعالهم دافعاً إلى الوحدة والتآلف

٥ – أن يكون موائماً لكل بيئات الأُمَّة المسلمة .

(١) نحو مجتمع إسلامي : سيد قطب ٦٢-٦٥ بتصرف .

٦ – أن تكون فيه صفة الاستمرارية مع الصحة .

فهذه العناصر إذا وجدت في تشريعٍ كان جديراً بأن يقوم بوظيفة التوحيد للأمَّة ، والتأليف بينها .

فهل نستطيع بجهودنا البشرية أن نضع لأنفسنا تشريعاً تتوافر فيه هذه العناصر ؟

١ – الإنسان محدود بحدود زمانية ، فهو قد يحيط علماً بما مضى ، ويعلم عصره الذي يعيش فيه ، ولكن لا يعلم ما يكون غداً . ولذلك فإنَّ تشريعه سيكون قاصراً على فترةٍ زمنيةٍ واحدة ، وقد ينقض غداً ما وضعه بالأمس، وهذا سرّ الاضطراب والتغيُّر المستمر للقوانين الوضعية التي تحكم المجتمعات غير المؤمنة .

٢ – الإنسان محدود – أيضاً – بحدود مكانية ، فلو افترضنا أنَّه يحيط علماً ببيئته التي يعيش فيها ، فإنَّنا لا ندَّعي أنَّه يحيط بدقائق وجزئيات البيئات الأخرى .

٣ – والإنسان إذا فكَّر وشرع ، باستقراء تاريخ الفكر البشري يميل إلى جانب ، ويتناسى بقية الجوانب ، فقد يميل إلى الفرد على حساب الجماعة، وقد يميل مع الجماعة على حساب الفرد، وقد يميل إلى الجانب المادي ويسرف فيه ، وقد يميل إلى الجانب الروحي ويسرف فيه، فهو يتطرَّف في تفكيره .

من أجل هذا كان لابـُدَّ لنا بعد ثبات فشل التشريع الوضعي، أن نبحث عن تشريع تتوافر فيه الإيجابيات السابقة ، دون سلبيات، وهذا لا يكون إلاَّ في تشريع من الله تبارك وتعالى الذي خلق الإنسان ويعلمُ سرَّه وعلانيته، ويعلم ما يصلحه وما يضره، والذي يحيط بكُلِّ شيءٍ علماً، فيعلم ما كان وما يكون في الزمان والمكان ، وهو الرحيم بعباده، يريد منهم اليسر ولا يريد منهم

العسر[1] وصدق الله العظيم { **ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير** }[2] . وفي قوله {**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّف بينهم إنَّه عزيزٌ حكيم** }[3] .

ومن فضل الله على الأمَّة ، أنَّ الإسلام هو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر ، وتحريف البشر ، ذلك أنَّ الله تعالى تولَّى حفظ كتابه ودستوره الأساسي بنفسه ، وهو القرآن المجيد ، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال { **إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون** }[4] .

وكان وعدُ ربي حقّاً . فقد صدقت القرون المتوالية – على رغم ما حلَّ بالمسلمين فيها من كوارث مروعة ونوازل هائلة – هذه النبوءة القرآنية، وبقى القرآن كما أنزله الله، وكما تلاه رسول الله محمد ﷺ ، وكما نقله عنه أصحابه، وتلقَّاه عنهم مَنْ تبعهم بإحسانٍ، ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه، وَتَتَعَبَّدُ بتلاوته ، وترتيله ، وحفظه ، وكتابته ، ولا عجب أنْ ظَلَّ – كما كان – مكتوباً في المصاحف ، متلواً بالألسنة ، محفوظاً في الصدور ، منقولاً إلينا – بالتواتر اليقيني نقلاً حرفياً – بنفس طريقة كتابته – منذ عهد الخليفة الثالث عثمان ﷺ رغم تطور طرائق الرسم والإملاء ، وبنفس طريقة تلاوته – منذ العهد النبوي – حتى أصوات الغن والمدّ والإظهار والإدغام والإقلاب والإخفاء ... الخ[5].

---

(1) د . محمد رأفت سعيد ، من بحث مقدَّم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدعوة ، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
(2) الملك : ١٤
(3) الأنفال : ٦٣
(4) الحجر : ٩
(5) د . يوسف القرضاوي : ٤١

والتشريعات الإسلامية التي تضبط الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والدولية – تشريعات ربانية – أعني في أسسها ومبادئها وأحكامها الأساسية التي أراد الله أن ينظِّم بها سير القافلة البشرية ، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد ، وأعدل المبادئ ، بعيداً عن قصور البشر ، وتطرفات البشر ، وأهواء البشر ، وتناقضات البشر ، وهذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي ، على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله ، وكلماته المعصومة من الخطأ ، المنزهة عن الظلم **{ وتمَّت كلمة ربِّك صدقاً وعدلاً لا مُبَدِّل لكلماته وهو السميع العليم }** (1).

وبهذا تقرَّر في الأصول الإسلامية أنَّ المُشَرِّعَ الوحيد هو الله عزَّ وجلَّ فهو الذي يأمر وينهى ، ويُحَلِّل ويُحَرِّم ، ويكلِّف ويُلْزِم ، بمقتضى ربوبيته وألوهيته ، وملكه لخلقه جميعاً ، فهو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، له الخلق والأمر ، وله المِلْك والمُلْك ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجعون ، وليس لأحد غيره من التشريع المطلق، إلاَّ ما أذن الله فيه، ممَّا ليس فيه نص ملزم، فهو في الحقيقة مجتهد ، أو مستنبط ، وليس مشرِّعاً أو حاكماً – حتى الرسول – ﷺ نفسه ليس مُشَرِّعاً ، وإنَّما وجبت طاعته لأنَّه مُبَلِّغ عن الله ، فأمره من أمر الله ، قال تعالى **{ مَن يُطِع الرسول فقد أطاع الله }** (2) ، ويقول سبحانه **{ ونزَّلنا إليك الذِّكْر لتبيِّن للناس ما نزل إليهم ولعلَّهم يتفكَّرون }** (3) .

---

(1) الأنعام : ١١٥
(2) النساء : ٨٠
(3) النحل : ٤٤

ولهذا نجد القرآن الكريم يعقِّب على كثيرٍ من الأحكام والتشريعات بلفت الأنظار إلى ربانية مصدرها، لتطمئن الأنفس وتستريح الضمائر، وتنشرح الصدور، للاستجابة والتنفيذ، حتى لا يتلكَّأ متلكِّئ أو يتوانى متوانٍ في الطاعة لحكم الله .

من هذه التعقيبات قوله تعالى في ختام آية قَسْم الصدقات من سورة التوبة { **فريضة من الله والله عليمٌ حكيم** } [1] .

ونحوها في ختام قسمة المواريث الأولى { **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضةً من الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً** } [2] .

وفي ختام آية المواريث الثانية { **وصيةً من الله واللهُ عليمٌ حكيم * تلك حدود الله ...** } [3] .

وفي آخر آية في سورة النساء ، وهي متعلقة أيضاً بالمواريث يختمها بقوله تعالى { **يُبَيِّن الله لكم أنْ تضلوا واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم** } [4].

وفي سورة الطلاق يُعَقِّب على أحكام الآية الأولى بقوله سبحانه :
{ **تلك حدود الله ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه** } [5] .

وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثُمَّ يقول سبحانه { **ذلك أمر الله أنزله إليكم** } [6] .

وبعد أحكام النساء المؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يعقِّب سبحانه فيقول : { **ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليمٌ حكيم** } [7] .

---

(١) التوبة : ٦٠
(٢) النساء : ١١
(٣) النساء : ١٢ - ١٣
(٤) النساء : ١٧٦
(٥) الطلاق : ١
(٦) الطلاق : ٥
(٧) الممتحنة : ١٠

وهذه التعقيبات وأمثالها ، ترشد وتذكِّر وتنبِّه وتؤكِّد على الأصل الذي تستمد منه هذه التشريعات ، فهي ربانية سماوية ، تصدر ممَّن لا رادَّ لأمره ولا معقِّب لحكمه .

ويترتب على ربانية المصدر إذن ثمرات منها :

١ – العصمة من التناقض والتطرف .

٢ – البراءة من التحيز والهوى .

٣ – الاحترام وسهولة الانقياد .

٤ – التحرُّر من عبودية الإنسان للإنسان [١] .

ومن ذلك ندرك أنَّ ربانية المصدر هي التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهي التي تجمع المسلمين وتؤلِّف بين قلوبهم، وتجعلهم يعيشون آمنين مطمئنين يتحلَّون بالإيثار ويكرهون الأثرة، وما فرق المسلمين في عصور سابقة ولاحقة ، إلاَّ اتباع الهوى والابتعاد عن منهج الله عزَّ وجلَّ ، واتباع السبل ، وصدق الله العظيم { **وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتَّقُونَ** } [٢].

ومن أجل ذلك كانت منَّة الله على الأُمَّة في بعث رسولِ الله ﷺ { **لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ** }[٣].

وهو سبحانه الذي أكمل الدين، وأتمَّ النعمة، وارتضى الإسلام ديناً {**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**}[٤].

عقيدة ربانية ، عبادة ربانية ، تشريع رباني .

---

(١) د . يوسف القرضاوي ، الخصائص العامَّة للإسلام ٤١-٥٠ (بتصرُّف) .
(٢) الأنعام : ١٥٣
(٣) آل عمران : ١٦٤
(٤) المائدة : ٣

وتلك ميزة تميَّزت بها الأُمَّة الإسلامية .

وإذا أُسِّسَ أفراد الأمة المسلمة على العقيدة الصحيحة الربانية ، فإنَّهم سَيَتَلَقَّوْنَ كُلَّ ما يأتي من ربِّهم بقبولٍ حسنٍ ، وسيحرصون على تطبيقه وهم يعلمون أنَّ الله يراهم وسيحاسبهم على ما يفعلون . فهذا التشريع الرباني سيجد قبولاً من أفراد الأُمَّة المؤمنين، وسيجدون أنَّه يشبع جوانبهم كلها، فهو يراعي الجانب المادِّي ويشبعه، ويراعي الجانب الروحي، القلبي، ويشبعه ، ويراعي الجانب العقلي ويشبعه ، في اتساقٍ من هذه الجوانب في الإنسان حتى لا يطغى جانب على آخر .

والمؤمن وهو يطبق شرع الله ، يجد نفسه في عبادة تحقق له العدل والأمن والطمأنينة في حياته الدنيا ، دون مظالم ، وتحقق له السعادة في الدار الآخرة .

وفي التشريع الإلهي ما يتوافق مع كُلِّ البيئات التي يعيش فيها المسلمون، ويتلاءم مع كُلِّ الأزمان ، التي يتقلَّبون فيها ، وهذا من أسرار إعجاز هذا التشريع ، فالأمور التي تقبل التغير السكاني أو التغير الزماني ، جعل لها الإسلام قواعد عامَّة تحكمها ، فكلَّما تطورت الأحداث في مكانٍ ما ، أو في زمانٍ ما ، وجد المجتهدون من القواعد العامة ما يناسب كل جديد في كُلِّ بيئة وفي كل عصر. وهذا من أسباب استمرار التشريع الإسلامي في صلاحيته لأداء دوره على مرِّ العصور، وذلك على هديٍ من الكتاب والسُنَّة.

ويبقى أن نتناول بالإشارة بعض الجوانب التشريعية لنرى كيف تسعى كلها لجعل الفرد عضواً في أُمَّته ، يشعر بشعورها ، ويعمل في تعاونٍ تامٍّ مع أفراد أُمَّته ، عمل العضو للعضو في الجسد الواحد .

فإذا نظرنا إلى التشريع الذي يتناول النظام الاجتماعي في الأُمَّة ، رأينا كيف يحرص الإسلام على الربط القوي بين الأبناء وآبائهم في كُلِّ مراحل

الأسرة في قوة الوالدين وفي ضعفهما ، حتى يصير الأبناء آباءً ، وهكذا يقول تعالى **{وقضى ربُّك ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه وبالوالدين إحساناً * إمَّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً}**[1] .

ويكون في التشريع مع بيان واجب الوالد نحو أبنائه ونحو زوجه ونحو رحمه ، واجب الأبناء نحو والديهم ، وواجب الزوجة نحو زوجها وأبنائها ، وواجب الأبناء مع أنفسهم .

ومن مجموع هذه التشريعات ومنذ تكوين الأسرة بالنكاح ، إلى قيامها على حقوق وواجبات في العشرة بالمعروف ، وإلى تعاملها ومكانتها مع غيرها من أُسر الأُمَّة كلها ما يدعم القول بأنَّ التشريع الإسلامي تشريعٌ ينمو حثيثاً نحو الأُمَّة الواحدة ، منذ أن يربى الفرد والأسرة ، وهو يقوم بعملية البناء - يحرص على حمايته ، ويعد الخروج على هذا النظام عقوقاً يمثل كبيرة من الكبائر التي يعاقب الله عليها .

وإذا نظرنا إلى النظم الأخرى في التشريع الإسلامي ، رأينا فيها هذا المنحى التوحيدي للأُمَّة .

فالنظام السياسي في الإسلام والقائم على العدل والشورى يجعل الإمام والرعية في وحدة واحدة ، تقوم على الحقوق والواجبات المفصلة **{ محمَّدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكُفَّار رحماء بينهم }** [2] ، **{ وأمرهم شورى بينهم }** [3] .

---

(١) الإسراء : ٢٢ - ٢٤
(٢) الفتح : ٧٩
(٣) الشورى ٣٨

وكذلك النظام الاقتصادي في الإسلام والذي يقضي بألاَّ يكون في الأُمَّة الواحدة مَنْ لا يجد حاجته الضرورية من الغذاء والكساء والدواء والمسكن ، وغير ذلك من الحاجات ..

وذلك بما يفرض ويخرج بطيب نفس كحقٍّ من الحقوق للفقراء وغيرهم من الأصناف الثمانية من أموال إخوانهم الأغنياء التي بلغت النصاب .

وإذا لم تكفِ الزكاة لسد الحاجات، فإنَّ البناء الذي بني عليه الفرد المسلم يجعله يمد يده لأخيه بالصدقات، أو بالقرض الحسن، استجابةً لقوله ﷺ (**ليس منا مَن بات شبعان وجاره جائع إلى جواره . وهو يعلم**)، وعن أبي ذر رفعه (**وإذا اشتريت لحماً أو طبخت قدراً فأكثر مرقته واغرف لجارك منه**)(1).

هذا مع ما في النظام الاقتصادي من تحصيلٍ للثروة بطريقٍ لا مظالم فيه بين أفراد الأُمَّة ، فلا غصب ، ولا سرقة ، ولا غش ، ولا غداع ، ولا ربا ، ولا استغلال لحاجات إخوانه .. وكل هذا من أسباب الألفة والوحدة وتجنب العداوة والبغضاء والفرقة .

فالنظام الاقتصادي في الإسلام في تحصيل الثروة وفي توزيعها، وفي كُلِّ ما يتصل بذلك يدعم وحدة الأمَّة .

وهكذا كُلّ النظم التشريعية في الإسلام ، والتي أشرنا إلى بعضها في ثنايا البحث والتي يؤدي تطبيقها إلى توحيد الأُمَّة .

ومن أجل ذلك نؤكد على ضرورة الاهتمام بتطبيق النظم الإسلامية والعمل بالتشريع الإسلامي في كُلِّ شئون حياتنا حتى يكون ذلك أساساً قوياً لتحقيق الأمَّة الواحدة(2).

---

(1) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . كذا في سنن الترمذي ٢/٥
وانظر : جمع الفوائد ٣٥٧/٢ حديث ٧٨١٤

(2) محمد رأفت سعيد . مصدر سابق . (بتصرف) .

وإذا كنا قد عالجنا في هذا الفصل عوامل الوحدة، المتمثلة في العقيدة الصحيحة والعبادة الصحيحة ، ووحدة أصول التلقي، فإنّنا ننبه إلى عنصرٍ هامٍّ ضروري لتقوية هذه العوامل ورسوخ بنائها، وهو وحدة الوسائل في الأُمَّة . ونعني بذلك مناهج التربية والتعليم في المدارس والمعاهد والجامعات، ووسائل الإعلام – المقروءة والمسموعة والمرئية – لِمَا لها من أثرٍ كبيرٍ في غرس العقيدة والعبادة، ومبادئ التشريع الإسلامي في قلوب الناشئة وعقولهم، فيتربون على الخلق الكريم، ويتعلَّمون على المنهج الصحيح الذي يكون من ثماره وحدة الأُمَّة وتعاونها على البر والتقوى، وعلى اعتبار الفرد عضوٌ في مجتمعٍ تضمه خير أُمّة أُخْرِجَت للناس، يصطبغ بصبغة الله، ويعتصم بحبله ويهدي إلى الصراط المستقيم.

وبوحدة الوسائل يستطيع أبناء الأُمَّة – بتوفيق الله – أن يكونوا مثلاً رفيعاً علماً وعملاً، رجولة وشهامة، أخوة ومحبة، يذودون عن حمى الإسلام، ويكشفون ما يزيفه أعداؤهم حوله، ويدحضون مفترياتهم، ويردون كيدهم في نحورهم .

فما أحوجنا – نحن المسلمين – إلى الأخذ بعوامل تلك الوحدة الإسلامية التي أرادها الله لخير أُمَّةٍ أُخْرِجَت للناس .

وما أحوجنا – نحن المسلمين – إلى منهجٍ موحَّدٍ في مجال التربية والتعليم والإعلام ، يعرف وجهته وغايته في الحياة ، وهي وجهة وغاية الإنسان المسلم الرباني . وهذا هو الصراط المستقيم { **وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتقون** }[1]، { **وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** }[2]، { **إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**

(١) الأنعام : ١٥٣
(٢) البقرة : ١٤٣

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً }[1]، {إنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلّ أولئك كان عنه مسئولا }[2]، { يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ مِلَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير }[3]،{وإنَّ هذه أُمَّتكم أُمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون }[4].

(١) الإسراء : ٩
(٢) الإسراء : ٣٦
(٣) الحج : ٧٧ - ٧٨
(٤) المؤمنون : ٥٢

الفصل الثاني

أسباب التفرُّق والاختلاف ونتائجهما

معنى الاختلاف والتفرُّق :

قبل أن نشرع في بيان أسباب الاختلاف والتفرُّق، يحسن بنا أن نقف على معنى كُلٍّ وأنواعه .

معنى الاختلاف وأنواعه :

الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كُلُّ واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله وقوله، والخلاف أعمّ مِنَ الظَّنِّ، لأنَّ كُلَّ ضِدَّيْن مختلفان، وليس كُلُّ مختلفين ضِدَّيْن.

ولَمَّا كان الاختلافُ بين النَّاس في القول قد يقتضي التنازع ، استعير ذلك للمنازعة والمجادلة[1]. قال تعالى: { **فاختلفَ الأحزابُ**}، { **ولا يزالون مختلفين** }، { **ولا تكونوا كالَّذين تفرَّقوا واختلفوا** }، { **فهدى الله الذين آمنوا لمَا اختلفوا فيه مِنَ الحَقِّ** } .

والاختلاف سُنَّة من سنن الله تعالى، قال سبحانه: {**ولو شاء ربُّكَ لجعل الناس أُمَّةً واحدة ولا يزالون مختلفين * إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك ولذلك خلقهم**}[2].

قال الإمام الشاطبي: فأخبر سبحانه أنَّهم لا يزالون مختلفين أبداً. أمَّا قول الله تعالى { **ولذلك خلقهم** } فقد بَيَّن الشاطبيُّ المعنى قال: خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنَّة وفريقاً في السَّعير. ونحوه عن الحسن، فالضمير في **خَلَقَهُم** عائدٌ على الناس، فلا يمكن أن يقع منهم إلاَّ ما سبق في العلم [3] .

فالله جلَّ وعلا خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة [4].

---

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات ١٥٦
(٢) هود : ١١٨-١١٩
(٣) الشاطبي : الاعتصام ٦٧٠/٢
(٤) القرطبي : تفسير القرطبي ٣٣٤٣/٥

وممَّا يدل على أنَّ الاختلاف في الأُمَّة سُنَّة من سُنَن الله عزَّ وجلَّ ما أخرجه الإمام مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية، دخلَ فَرَكَعَ فيه ركعتين، وصلَّينا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثُمَّ انصرف إلينا، فقال ﷺ: **(سألتُ ربِّي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألتُ رَبِّي أن لا يهلك أُمَّتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أُمَّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)** [1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – بعد أن أورد حديث الافتراق، وحديث سعد – وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، ليشير إلى أنَّ التفرقة والاختلاف لابـُدَّ من وقوعهما في الأُمَّة. وكان يُحَذِّر أُمَّته لينجو مَنْ شاء الله له السلامة [2] .

تحذير النَّبِيِّ ﷺ من الاختلاف :

ولَمَّا كان الاختلاف يؤدي إلى التنازع ووقوع الأحقاد وزرع الأضغان وإثارة العداوة والبغضاء في النفوس، مِمَّا يترتَّب عليه الفساد والهلاك والفشل والضعف، حذَّر منه ﷺ .

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : **(دعوني ما تركتكم، فإنَّما أهلك مَنْ كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم)** [3].

وقد قال ابن القَيِّم[1]: وقال النبيُّ ﷺ: **(لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)**[2] وقال: **(اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا)** [3].

---

(١) مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك الأمَّة بعضها ببعض .
(٢) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ١٢٢/١
(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب ذاته ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم ٦٨٥٨ ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب توقيره ﷺ رقم ١٨٣٠

وكان التنازع والاختلاف أشد شيء على رسولِ الله ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافاً يسيراً في فهم النصوص يظهر في وجهه، حتى كأنَّما فقئ فيه حب الرُّمَّان، ويقول :(أبهذا أُمِرتُم)[٤] .

معنى التفرُّق وأنواعه :

والتفرُّق من الفَرْق، والفرق يقارب الفَلْق، لكنَّ الفَلْقَ يكون اعتباراً بالانشقاق، والفَرْق يقال اعتباراً بالانفصال. قال تعالى: **{وَإِذْ فَرَقْنَا بكم الْبَحْرَ}** والفرق المنطقة المنفصلة، ومنه الفِرْقَة للجماعة المنفردة بين الناس، والفريق الجماعة المتفرِّقة عن آخرين، قال تعالى **{ وإنَّ منهم لَفَرِيقاً يَلْوونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ }**، وفرقت بين الشَّيْئَيْن فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى **{ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين }**، والفارقات فرقاً يعني الملائكة الذين يفصلون بين الأشياء حسبما أمرهم ربهم، وعلى هذا قوله تعالى **{ فيها يُفْرَقُ كُلّ أمرٍ حكيم }**، وقال تعالى **{ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم ..}** وقُرِئَ **{فَارَقُوا}** ..

والفراق والمفارقة يكون بالأبدان أكثر، والتفريق أصله للتكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة نحو قوله تعالى **{يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ}** [٥] .

---

(١) إعلام الموقعين ٢٥٩/١

(٢) جزء من حديث البراء بن عازب أخرجه أبو داود ٦٦٤ ، والنسائي ٨٩/٢ ، والبغوي في شرح السُنَّة ٣٧٣/٣

(٣) أخرجه البخاري ٦٩٣١ ، ومسلم ٢٦٦٧ من حديث جندب بن عبد الله .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٩٦/٢ وقد صحَّحه شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ١٤١/١

(٥) الرّاغب الأصفهاني : المفردات ص ٣٧٧-٣٧٨ ، دار المعرفة ، بيروت.

قال ابن الأثير: والتفرُّق والافتراق سواء، ومنهم مَنْ يجعل التفرُّق بالأبدان ، والافتراق في الكلام، يقال: فرقت بين الكلامين فافترقا ، وفرقت بين الرَّجُلَيْن فتفرَّقا [(١)] .

" والفرق خلاف الجمع ، فرقه يفرقه فرقاً ، وفرقةً ، وقيل : فرق للإصلاحِ فرقاً ، وفرقَ للإفسادِ تفريقاً ، وانفرق الشيء، وتفرَّقَ، وافترقَ.

والفرقة مصدر الافتراق ، قال الأزهري : الفرقة اسم يوضع موضع المصدر الحقيقي من الافتراق .

وفي حديث ابن مسعود ﷺ صلَّيْتُ مع النبي ﷺ بمنى ركعتين، ومع أبي بكر وعمر، ثُمَّ تفرَّقت بكم الطُّرُق، أي ذهب كُلٌّ منكم، وقال إلى قول، وتركتم السُّنَّة .

وفارق الشيء مفارقة وفراقاً: باينه، والاسم الفرقة. وتفارقَ القومُ، فارقَ بعضُهُم بعضاً ، وفارقَ فلانٌ امرأته مفارقةً وفِرَاقاً ، باينها .

والفرق والفرقة والفريق: الطائفة من الشيء المتفرِّق. والفرقة: طائفة من الناس، والفريق أكثر منه [(٢)].

من خلال العرض السابق لمعاني الفرقة والافتراق والتفرُّق، يمكننا أن نقول: إنَّ الافتراق والتفرّق يعني المباينة والانفصال والانقطاع عن الجماعة، وهذا في المحسوسات . أمَّا الافتراق والتفرُّق في الدِّين فهو الخروج عن المنهج القويم والصراط المستقيم – عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة، صراط الله – في أصول الدِّين، ومخالفتهم، والبعد عنهم بسبب حجب الهدى والغفلة وتلبيس إبليس.

---

(١) النهاية ٤٣٩/٣

(٢) ابن منظور : لسان العرب ٢٩٩/١٠ مادة (فرق) .

ولذا أمر الله عباده المتّقين أن يسلكوا صراطه المستقيم ، ويتّبعوا هديه، ولا يتنكّبوا طريقه ومنهجه، يقول سبحانه **{وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوه وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ به لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[1] .

ومن الملاحظ أنَّ التفرُّقَ يترتب على الاختلاف والتنازع والتناحر، ولذا قدَّمنا الحديث عن الاختلاف على الافتراق ، يقول تعالى **{ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين }** [2] .

ذَمُّ الاختلافِ والتفرُّق:

ولهذا نهى الله سبحانه عن التنازع والاختلاف ، وحذَّر من عاقبته ، وذمَّ التفرُّقَ وتوعَّد فاعليه، يقول تعالى **{ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء }**[3] .

وقال تعالى **{ ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات }**[4] .

وقال سبحانه **{فتقطَّعوا أمرهم بينهم زبراً كُلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون}**[5]. أي صاروا أحزاباً.

وقال تعالى **{ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدِّينَ وَلاَ تتفرَّقوا فيه}**[6] .

---

(١) الأنعام : ١٥٣
(٢) الأنفال : ٤٦
(٣) الأنعام : ١٥٩
(٤) آل عمران : ١٠٥
(٥) المؤمنون : ٥٣
(٦) الشورى : ١٣

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : **أي أوصى الله جميع** الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف [١].

والمعنى: أنَّ الله تعالى سنَّ لكم يا معشر المسلمين من الدين ما سنَّه لنوح والذين من بعده من الأنبياء السابقين إلى زمن نبيكم محمَّد ﷺ .

وتخصيص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر، لعلو شأنهم، وعظيم شهرتهم، فهم ومعهم النبي ﷺ أولوا العزم من الرُّسُل، وإلاَّ فكُلُّ نبيٍّ جاء بمثل ما جاء به هؤلاء الأنبياء الأكرمون من الدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى. قال تعالى **{ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إلــه إلاَّ أنا فاعبدون }** [٢]

ثُمَّ بَيَّن سبحانه ما أمرهم به جميعاً فقال : **{ أنْ أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه }** أي أن أقيموا الدين على ما أمركم به الله تعالى من توحيده وطاعته، ولا تختلفوا في أحكامه التي أجمعت على صِحَّتها شرائع الأنبياء السابقين، فإنَّ هذا الاختلاف يؤدِّي إلى فشلكم وذهاب ريحكم [٣] .

يقول تعالى **{وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}**[٤] وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى **{ يوم تبيضُّ وجوهٌ وتَسْوَدّ وجوه }** : تَبْيَضّ وجوه أهل السُنَّة والائتلاف ، وتَسْوَدّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف [٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١١٨/٤
(٢) الأنبياء : ٢٥ .
(٣) د . محمد سيد طنطاوي: من بحث مقدَّم إلى المؤتمر العالمي الثاني، الجامعة الإسلامية ١٤٠٣هـ .
(٤) الأنفال : ٤٦
(٥) إعلام الموقعين ٢٥٨/١

ولقد كان رسول الله ﷺ يحثُّ أُمَّته على الاجتماع، ويحذِّرهم من التفرُّق والاختلاف حتى لا تقع فيما وقعت فيه الأُمم السابقة ، فأدَّى ذلك إلى هلاكها، وذهاب ريحها، وحلَّ بها عذاب الله، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (**إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال**) [(١)] .

قال الإمام النووي: "وأمَّا قوله ﷺ **(ولا تفرَّقوا)** فهذا أمرٌ معلومٌ بلزوم جماعة المسلمين ، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام، واعلم أنَّ الثلاثة المرضية إحداها أن يعبدوه، الثانية أن لا يشركوا به شيئاً، الثالثة أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرَّقوا"[(٢)].

وفي أعقاب غزوة بدر، تطلَّع بعض الناس إلى الغنائم، واختلفوا في شأن تقسيمها، فنزل قوله تعالى { **يسألونك عن الأنفال قُلِ الأنفَالُ للهِ والرَّسول فاتَّقوا الله وأصلِحُواْ ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إنْ كنتم مؤمنين** } [(٣)].

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عدداً من الروايات التي وردت في سبب نزولها، ومن هذه الروايات ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه – واللفظ له – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: لَمَّا كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : (**مَنْ صنع كذا فله كذا**) فتسارع ذلك شُبَّان القوم، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلمّا كانت الغنائم جاءوا يطلبون الذي جُعِلَ لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنَّا كُنَّا ردءاً لكم، لو انكشفتم لثبتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى { **يسألونك عن الأنفال** } إلى آخر الآية.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ١٧١٥
(٢) شرح صحيح مسلم ١١/١٢
(٣) الأنفال : ١

وروى الإمام أحمد – بسنده – عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن هذه الآية فقال : فينا معشر أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا في النَّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى الرسول ﷺ ، فقسمه بين المسلمين عن بواء ، أي على السواء [1].

وفي السورة نفسها ، وفي أعقاب غزوة بدر – أيضاً – ناداهم بصفة الإيمان، ودعاهم إلى الثبات عند لقاء الأعداء، وإلى الإكثار من ذكر الله تعالى، وإلى التزام طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ونهاهم عن التنازع، وبيَّن لهم سوء عاقبته، فقال تعالى **{ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين }** [2].

فقوله سبحانه **{ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم }** نهي لهم عن الاختلاف المؤدي إلى الفشل، وضياع القوة، بعد أمرهم بالثبات والمداومة على ذكر الله وطاعته .

وقوله سبحانه **{ ولا تنازعوا }** من النزع بمعنى الجذب وأخذ الشيء، والتنازع والمنازعة المجاذبة من طرفين ، حتى لكأنَّ كُلَّ واحد من المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ، ويلقي به بعيداً.

والمراد بالتنازع – هنا – : الخصام والجدال والاختلاف المفضي إلى الفشل ، أي إلى الضعف والخسران .

قال الألوسي : وقوله سبحانه **{ وتذهب ريحكم }** قال الأخفش: الريح مستعارة للدولة لشبهها بها في نفوذ أمرها وتمشيه، ومن كلامهم هبَّت ريح فلان، إذا دالت له الدولة ، وجرى أمره على ما يريد، وركدت رياحه إذا ولَّت عنه، وأدبر أمره، قال الشاعــر :

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٨٣/٢ ط . الحلبي .
(٢) الأنفال : ٤٥-٤٦

إذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَـا فَإِنَّ الْخَـافِقَـاتِ لَهَا سُكُـــــونُ
وَلاَ تَغْفَـلْ عَنِ الإحْسَـــانِ فِيهَا فَمَا تَدْرِي السُّكُونَ مَتَى يَكُونُ [١] .

هذا والمتأمِّلُ في هاتين الآيتين الكريمتين ، يراهما قد رسمتا للمؤمنين في كُلِّ زمانٍ الطريقَ التي توصلهم إلى الفلاح والظَّفَر .

إنَّهما تأمران بالثبات عند لقاء الأعداء، والثبات من أعظم وسائل النجاح، وأقرب الفريقين إلى النَّصر أكثرهما ثباتاً. وتأمران بطاعة الله ورسوله، لأنَّ طاعتهما دليل على قوة الإيمان وصفاء النفوس وطهارة القلوب.

وتنهيان عن التنازع، لأنَّه يؤدي إلى الضعف والتخاذل وهوان الأمر وذهاب القوة .

ثُمَّ تختتمان بالأمر بالصبر الذي هو توطين النفس على ما يرضى الله، وعلى احتمال المكاره والمشاق في جَلَد. وهذه الصِّفة لابُدَّ منها لكلِّ مَنْ يريد الوصول إلى آماله وغايته [٢] .

ورحم الله الإمام ابن كثير، فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين: " هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين، آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء " [٣] .

وفي أعقاب غزوة أُحُد التي استشهد فيها سبعون بطلاً من أبطال المسلمين ، تساءل بعضُ الصحابة: كيف يحصل لنا كُلُّ هذا من أعداء الله وأعدائنا ؟!

وكيف تغلَّبوا علينا مع أنَّ الله تعالى قد وعدنا بالنصر ؟ فنزل قوله تعالى **{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَه ... }** الآيات. قال الإمام القرطبي – رحمه

---

(١) تفسير الألوسي ١٤/١٠ ط. منير الدمشقي ، القاهرة .
(٢) د . محمد سيد طنطاوي ص ١٥ مرجع سابق .
(٣) تفسير ابن كثير ٣١٦/٢

الله – : وقد روى البخاري عن البراء بن عازب قال : لَمَّا كان يوم أُحُد، ولقينا المشركين، أجلس النبيُّ ﷺ ناساً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم: (**لا تبرحوا من مكانكم . إنْ رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإنْ رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا**). قال: فلمَّا لقيناهم هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، أي يسرعن في الفرار – يرفعنَ عن سوقِهنَّ . فجعلوا يقولون – أي الرماة – الغنيمة. فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير : أمهلوا، أمَا عهد إليكم رسولُ الله ﷺ ألاَّ تبرحوا؛ أماتكم ؟ فأبوا وانطلقوا لجمع الغنائم [١] .

والمعنى: ولقد حقَّق الله تعالى لكم أيها المؤمنون، ما وعدكم به من النصر على أعدائكم، إذ أيدكم في أوّل معركة أُحُد بعونه ورعايته، حتى إذا ضعفت نفوسكم، وتنازعتم فيما بينكم، وانقسمتم على أنفسكم، ولم تكونوا يداً واحدة، وقلباً واحداً، حتى إذا فعلتم ذلك، منع الله تعالى عليكم نصره .

وهكذا نرى أنَّ تأديب الله تعالى للمسلمين في غزوة أُحُد، كان بسبب فشل بعضهم وتنازعهم وعصيانهم أمرَ الرسول ﷺ، وصدق الله تعالى إذ يقول: { **واتَّقوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منهم خاصّة واعلموا أنَّ الله شديدُ العِقَاب** } [٢] .

وعندما حاول يهوديٌّ خبيث إشاعة الفتنة والفرقة بين المسلمين، نزل القرآن الكريم يحذِّرهم من طاعة أعدائهم، ويذكِّرهم بما كانوا عليه قبل الإسلام من كفر وضعف وتنازُع، وبما صاروا إليه بعد الإسلام من إيمانٍ وقوَّةٍ وتضامُنٍ .. نزل قوله تعالى { **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى**

(١) تفسير القرطبي ٢٣٣/٤
(٢) الأنفال : ٢٥

عليكم آياتُ الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقَاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذْ كُنْتُم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتُم بنعمتِه إخواناً وكُنْتُم على شَفَا حُفْرَةٍ من النَّارِ فأنقَذَكُم منها كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون}[1].

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخاً كبيراً قد عسا – أي كبر وأسن – في الجاهلية. مرَّ على نفرٍ من الصحابة – الأوس والخزرج في مجلسٍ قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة [2] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

ثُمَّ أمر شاباً من اليهود كان معه فقال له : اعمد إليهم فاجلس بينهم وذكِّرهم بيوم بُعُاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار – وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفر فيه للأوس على الخزرج .

فعمل الشاب اليهودي ما أمره به شاس، فتكلَّم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثَبَ رجلان من الحَيَّيْنِ على الركب، وحتى قال أحدهما لصاحبه: إنْ شئتُم والله رددناها – أي الحرب – جذعة – أي قوية فتية – وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا . السلاح. السلاح. وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال لهم: (

---

(١) آل عمران : ١٠٠-١٠٣

(٢) قيلة : هي بنت كاهل بن عذرة ، وهي أمّ الأوس والخزرج .

(أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكُم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، قطع عنكم أمر الجاهلية. واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بينكم، أترجعون إلى ما كنتم عليه كُفَّاراً ؟). فعرف القوم أنَّها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوِّهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرِّجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع رسولِ الله ﷺ سامعين طائعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع .. فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع **{قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآياتِ الله والله شهيدٌ على ما تعملون}**[1]

وأنزل في شأن المتنازعين من الأوس والخزرج **{ يا أيها الذين آمنوا إنْ تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ... }** الآيات. فما كان يوم أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم [2] .

والمتأمِّلُ في هذه الآيات الكريمات يراها قد افتتحت بنداء المؤمنين بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنةٍ ويقظة، فإنَّ المؤمنَ ليس خبّاً ، ولكنَّ الخبّ لا يخدعه .

أي يا مَن آمنتم بالله واليوم الآخر ، إنَّكم إن أطعتم ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس خسرتم وصرتم بعد وحدتكم متفرقين ، وبعد إيمانكم كافرين .

ثُمَّ بَيَّن سبحانه أنَّه ما يسوغ لهم أن يطيعوا أعداءهم، أو أنْ يكفروا بعد إيمانهم، أو أن يتفرَّقوا بعد وحدتهم، فقال **{وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ..}** أي كيف يتصور منكم الكفر أو التفرق، وآيات الله تُقْرأ على مسامعكم صباح مساء، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيكم يردكم إلى

---

(١) آل عمران : ٩٨-٩٩

(٢) تفسير الطبري ٢٣٠/٤

الصواب إنْ أخطأتم، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر ؟؟ فالاستفهام هنا في قوله تعالى **{ وكيف تكفرون }** للإنكار ولاستبعاد كفرهم في حالٍ قد اجتمعت فيها كُل أسباب الإيمان والإخاء والتضامن. ثُمَّ أرشدهم سبحانه إلى الوسيلة التي متى ما تمسَّكوا بها عصموا أنفسهم من مكر أعدائهم، فقال : **{ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم }** أي ومن يلتجئ إلى الله تعالى في كُلِّ أحواله، ويتوكَّل عليه فقد هُدِيَ إلى الطريق الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

ثُمَّ أمرهم سبحانه بمجامع الطَّاعات، ومعاقد الخيرات فقال: **{ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلمون }** أي بالغوا أيها المؤمنون في التمسُّك بتقوى الله ومراقبته وطاعته حتى لا تتركوا منها شيئاً ، ولا تكونن على مِلَّةٍ سوى مِلَّة الإسلام إذا أدرككم الموت، وإنَّما عليكم أن تستمروا على دينكم القويم ، حتى يأتيكم الأجل الذي
لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون .

وبعد أن أمرهم سبحانه بمداومة خشيته، أتبع ذلك بأمرهم بالاعتصام بدينه فقال: **{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا }** والاعتصام من العصم بمعنى المنع ، فكلُّ مانع شيئاً هو عاصمه. وأصل الحبل: ما يشد به للارتقاء أو التدَّلي أو للنجاة من شيءٍ معيَّنٍ، والمراد بحبل الله – هنا – : دينه أو عهده أو كتابه، لأنَّ التمسُّكَ بهذه الأشياء يوصل إلى النجاة . أي كونوا جميعاً أيها المؤمنون متمسِّكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا تتفرَّقوا كما كان شأنكم في الجاهلية .

ففي الآية الكريمة تحريض للمؤمنين على التمسُّك بكتاب الله تعالى بأبلغ أسلوب، حيث شبَّه سبحانه الحالة الحاصلة من تمسُّك جماعة بحبلٍ وثيقٍ مأمون الانقطاع، ألقى إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما، ثُمَّ

أمرهم – سبحانه بتذكُّر نعم الله عليهم فقال: **{ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها }** .

وقوله سبحانه **{ شَفَا حُفْرَةٍ }** : الشفا طرف الشيء وحرفه ، مثل شفا البئر ، وشفا الحفرة ، ومنه يقال : فلان أشفى على الشيء إذا أشرف عليه، كأنَّه بلغ شفاه أي حده وحرفه .

والمعنى : واذكروا – أيها المؤمنون – وتنبهوا بعقولكم وقلوبكم إلى نعم الله عليكم ، حيث هدى نفوسكم ، ورأب صدوعكم، فقد كنتم في الجاهلية أعداءً متقاتلين متنازعين متفرِّقين ، فألَّف بين قلوبكم بنعمة الإيمان، وبأخوة الإسلام ، فأصبحتم متحابِّين متوادِّين، وكنتم على وشك الوقوع في النَّار بسبب كفركم وضلالكم، فمَنَّ الله عليكم وأنقذكم من التردِّي فيها بأنْ هداكم إلى الحقِّ عن طريق رسول الله ﷺ . فَمِنَ الواجب عليكم وفاءً لهذه النِّعَم أن تشكروا الله عليها وأن تطيعوا رسوله ، وأن تتمسَّكوا بعرى المحبَّة والمودَّة والأخوَّة والتضامن فيما بينكم .

والمتأمِّلُ في هذه الآية الكريمة يراها تُصَوِّرُ تصويراً بديعاً مؤثِّراً صادقاً حالة المسلمين قبل الإسلام وحالتهم بعد الإسلام ، فقد صوَّرت ترديهم في الكفر والاختلاف والتَّنازع قبل الإسلام بحالة مَن يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها . وصوَّرت هداية الله تعالى لهم إلى الدين الحَقِّ وإلى المحبَّة والإخاء بعد دخولهم في الإسلام عن طريق النَّبيِّ ﷺ بحالة مَن يبعد غيره عن التردِّي في النَّار وينقذه من الوقوع فيها .

ثُمَّ ختم سبحانه هذه الآيات الكريمة بقوله **{ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكُم آياته لعلَّكم تهتدون }** .

أي كهذا البيان الواضح الذي سمعتموه في هذه الآيات، يُبَيِّنُ الله لكم دائماً من آياته ودلائله وحججه، ما يسعدكم في الدنيا والآخرة، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها، رجاء أن تكونوا مِمَّن رضي الله عنهم وأرضاهم، بسبب اهتدائهم إلى الطريق القويم[1].

ويقول سيِّد قطب في ظلال تلك الآية الكريمة : **{ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حَقَّ تُقَاتِه }** : اتَّقوا الله – كما يحق له أنْ يُتَّقى – وهي هكذا بدون تحديد ، تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها، وكلَّما أوغل القلب في هذا الطريق تكشَّفت له آفاق، وجَدَّت له أشواق، وكلَّما اقترب بتقواه من الله تيقَّظ شوقه إلى مقامٍ أرفع مِمَّا بلغ، وإلى مرتبةٍ وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام .

{ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلمون } والموت غيب لا يدري إنسانٌ متى يدركه ، فمن أراد أن لا يموت إلاَّ مسلماً ، فسبيله أن يكون منذ اللحظة الأولى مسلماً ، وأن يكون في كُلِّ لحظةٍ مسلماً، وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع، الاستسلام. الاستسلام لله ، طاعةً له واتِّباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه، وهو المعنى الذي تقرره السورة كُلها في كُلِّ موضعٍ فيها على نحوِ ما أسلفنا .

هذه هي الرَّكيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتُحَقِّقَ وجودها وتُؤَدِّي دورها، إذ أنَّه بدون هذه الرَّكيزة يكون كُلُّ تَجَمُّعٍ تجمُّعاً جاهليّاً، ولا يكون هناك منهج لله تتجمَّع عليه أُمَّة، إنَّما تكون هناك مناهج جاهلية ، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنَّما تكون القيادة للجاهلية .

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي ، من بحث مقدَّم للمؤتمر العالمي الثاني ، الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٣/١٤٠٤ هـ .

فأمَّا الرَّكيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة .. الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله .

{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كُنْتُم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً. وكنتم على شفا حفرةٍ من النَّارِ فأنقذكم منها . كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون } .

فهي إخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام، من الركيزة الأولى، أساسها الاعتصام بحبل الله – أي عهده ونهجه ودينه – وليست مجرَّد تجمُّع على أي تصوُّرٍ آخر ، ولا على أي هدفٍ آخر، ولا بواسطة حبلٍ آخر من حِبَالِ الجاهلية الكثيرة. **{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا } .**

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً، وهو هنا يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية أعداءً .. وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد . وهما الحيَّان العربيان في يثرب ، ويجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً، ومن ثَمَّ تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلاَّ فيه ، ولا تعيش إلاَّ معه، فألَّف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام ، وما كان إلا الإسلام وحده بجمع هذه القلوب المتنافرة ، وما كان إلاَّ حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً .

وما يمكن أن يجمع القلوب إلاَّ إخوة في الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثأرات القَبَلِيَّة، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمَّع الصَّف تحت لواء الله الكبير المتعال. **{ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً } .**

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله - الركيزة الأولى - وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً - الركيزة الثانية - **{ وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها }** .

والنَّصُّ القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : " القلب " فلا يقول فألَّف بينكم ، إنَّما ينفذ إلى المكمن العميق **{ فألَّف بين قلوبكم }** فيصور القلوب حزمة مؤتلفة متآلفة بيد الله ، وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النَّص صورة لِمَا كانوا فيه ، بل مشهداً حيّاً متحرِّكاً تتحرَّك معه القلوب **{ وكنتُم على شفا حفرةٍ من النار }**، وبينما حركة السقوط في حفرة متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ، وحبل الله وهو يمتد ويعصم، وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب، وهو مشهد متحرِّك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة، وتكاد العيون تتملاَّه من وراء الأجيال . **{ كذلك يُبَيِّنُ الله لكم آياته لعلَّكم تهتدون }** .

ثُمَّ يذكر سبب نزول هذه الآيات ويستطرد قائلاً : فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية في طريقه .. هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائماً للجماعة المسلمة، كلَّما تجمَّعت على منهج الله واعتصمت بحبله، وهذه ثمرة من ثمار أهل الكتاب، كادت ترد المسلمين الأوَّلين كُفَّاراً يضرب بعضهم رقاب بعض ، وتقطع بينهم حبل الله المتين، الذي يتآخون فيه مجتمعين . وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق .

على أنَّ مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة، فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنَّه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصَّفِّ المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكُلِّ الوسائل،

والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسِّهم، ومن التفرُّق كما تفرَّقوا ، هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشكِّ والبلبلة باستمرار. وهو دأب يهود في كُلِّ زمان، وهو عملها اليوم وغداً في الصَّفِّ المسلم، في كُلِّ مكان [1].

أنواع الفرقة :

قال الحافظ الخطابي : " الفرقة فرقتان :

١ - فرقة الآراء والأديان .

٢ - فرقة الأشخاص والأبدان .

فأمَّا الافتراق في الآراء ، والأديان فإنَّه محظور في العقول ، محرَم في قضايا الأصول ، لأنَّه داعية الضلال ، وسبب التعطيل والإهمال ، ولو ترك الناس متفرقين ، لتفرَّقت الآراء والنِّحَل ، ولكثرت الأديان والمِلَل ، ولم تكن فائدة في بعثة الرُّسُل ، وهذا هو الذي عابه الله عزَّ وجلَّ من التفرُّق في كتابه وذَمَّه ..

ثُمَّ قال : وأمَّا عزلة الأبدان، ومفارقة الجماعة التي هي العوام، فإنَّ من حكمها أن تكون تابعة للحاجة، وجارية مع المصلحة، وذلك أنَّ عظم الفائدة في اجتماع الناس في المدن، وتجاورهم في الأمصار، إنَّما هو أن يتضافروا ويتعاونوا على المصالح، ويتوازروا فيها إذا كانت مصالحهم لا تكمل إلاَّ به، ومعايشهم لا تزكو إلاَّ عليه [2].

ما يجوز الاختلاف فيه وما لا يجوز :

إنَّ الدين أكثر ما يطلق في القرآن على العقائد والأصول ، دون الفروع فلا يجوز الاختلاف في العقائد والأصول ، لأنَّه يجعل الدين الواحد أدياناً

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣

(٢) كتاب العزلة : ٥٧ ـ ٥٨

متعدِّدة ، والأُمَّة الواحدة أُمَماً متناحرة ، وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هذا الاختلاف مُحَذِّراً منه ، فيما رواه أبو داود من حديث معاوية ﷺ قال :

ألا إنَّ رسول الله ﷺ قام فينا خطيباً فقال : (**إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّة، وإنَّ هذه المِلَّة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)**[1].

وقد نعى الله تعالى على الذين فرَّقوا دينهم ، وتقطَّعوا أمرهم فقال: **{إنَّ الذينَ فرَّقُوا دينَهُمْ وكَانُواْ شيَعاً لَسْتَ منْهُمْ في شَيْءٍ إنَّمَا أَمْرُهُم إلى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }** [2] .

وقال :{ **فتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبراً كُلُّ حزب بما لديهم فرحون}**[3]. وهذا وإن كان وارداً في أهل الكتاب وغيرهم من الأمم السابقة ، فهو تحذير للأمة الإسلامية من مثل أفعالهم .

أمَّا الاختلاف في الفروع القائم على الاجتهاد الصحيح فلا بأس به ، ولا ضير منه، بل هو إثراء للفقه، واستثمار للنص، وتدبر لمعاني الشريعة ومراميها، وهذا الخلاف لا ينشأ عنه الفساد، ولا يتعذَّر معه الجمع والائتلاف، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون متواصلون [4] .

إنَّما يكون هذا الاختلاف مذموماً إذا كان قائماً على التعصُّب الأعمى والتقليد الجامد واتِّباع الهوى ، ومعرفة الحق بالرجال ، لا الرجال بالحقّ ، ورمي المخالف بتهمة الجهل والضَّلال ونسبته إلى الكفر والابتداع ، فإنَّ الحقَّ ليس قصراً على عالم معين ، ولا وقفاً على مذهبٍ محدَّدٍ ، وكُلٌّ يخطئ ويصيب ويؤخذ من كلامه ويرد عليه إلاَّ رسول الله ﷺ .

---

(١) سنن أبي داود ٤/٧
(٢) الأنعام : ١٥٩
(٣) المؤمنون : ٥٣
(٤) تفسير القرطبي ٥٩/٤ ، تفسير المنار ٢١٨/٨

وقد صحَّ عن أئمة المذاهب الأربعة قول كُلّ منهم : إنَّ صحَّ الحديث فهو مذهبي . ولم يجيزوا لأحد أن يقلِّدَهم في اجتهادهم إلاَّ إذا ظهر له صِحَّة دليلهم فصار على بَيِّنَةٍ من الحُكم [1] .

يقولُ الشَّاطِبيُّ في مقام الحديث حول معنى الآية الكريمة { **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } : أنَّ جماعةً من المفسرين ومنهم عطاء قال : { **ولا يزالون مختلفين إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } قال: اليهود والنصارى والمجوس . والحنيفية هم الذين رحم ربُّك . ثُمَّ استطرد : إنَّ هؤلاء المتفقين قد يعرض لهم الاختلاف في الفروع دون الأصول ، وفي الجزئيات دون الكُلِّيَّات ، فلذلك لا يضرّ هذا الاختلاف .

وقد نقل المفسِّرون عن الحسن في هذه الآية أنَّه قال : أمَّا أهل رحمة الله فإنَّهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم ، يعني لأنَّه في مسائل الاجتهاد التي لا نصَّ فيها يقطع العذر بل لهم فيه أعظم العذر ، ومع أنَّ الشارعَ لما علم أنَّ هذا النوع من الاختلاف واقعٌ ، أتى فيه بأصلٍ يرجع إليه وهو قول الله تعالى { **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُون بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..** } فكُلُّ اختلاف من هذا القبيل حكم الله فيه أنْ يُرَدَّ إلى الله – وذلك رَدّه إلى كتابه – وإلى رسولِ الله ﷺ – وذلك ردّه إليه إذا كان حَيّاً، وإلى سُنَّته بعد موته – وكذلك فعل العلماء – رضي الله عنهم .

وقد رأى جماعة من السَّلَف الصَّالح أنَّ اختلاف الأمة في الفروع ضرباً من ضروب الرحمة ، حيث إنَّ فيه توسعة على الأُمَّة ، فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها .

---

(١) تفسير المنار ٢١٨/٨

وبين هذين الطريقين واسطة أدنى من الرتبة الأولى ، وأعلى من الرتبة الثانية ، وهي أن يقع الاتفاق في أصل الدِّين ، ويقع الاختلاف في قواعده الكُلِّية ، وهو المؤدِّي إلى التفرُّق شيعاً .

والاختلاف في بعض القواعد الكُلِّية لا يقع في العبادات الجارية بين المتبحرين في علْمِ الشريعة ، الخائضين في لجَّتها العُظْمَى، العالمين بمواردها ومصادرها .

والدليل على ذلك اتفاق العصر الأوَّل ، وعامَّة العصر الثاني على ذلك وإنَّما وقع اختلافهم في القسم المفروغ منه آنفاً ، بل كُلّ خلاف على الوصف المذكور وقع بعد ذلك، فله أسبابٌ ثلاثة قد تجتمع، وقد تفترق: أحدها: أن يعتقد الإنسان في نفسه، أو يعتقد فيه أنَّه مِنْ أهل العلم والاجتهاد في الدِّين، ولم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأياً، وخلافه خلافاً، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرعٍ من الفروع، وتارة يكون في كُلِّي، وأصل من أصول الدين، كان من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العلمية – فتراه آخذاً ببعض جزئيات الشريعة، في هدم كلياتها، حتى يصير منها ما ظهر له بادئ رأيه، من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ في فهم مقاصدها، وهذا هو المبتدع، وعليه نبَّه الحديث الصحيح أنَّه ﷺ قال: **(لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عَالِمٌ اتَّخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فأَفْتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا)** [1].

قال بعض أهل العلم : تقدير هذا الحديث، يدل على أنَّه لا يؤتى الناس قط من قبل علمائهم، وإنَّما يؤتون من قِبَل أنَّه إذا مات علماؤهم، أفتى من ليس بعالم، فيؤتى الناس من قبله وقد صرف هذا المعنى تصريفاً فقيل: ما خان أمينٌ قط. ولكنَّه ائتمن غير أمينٍ فخان، ونحن نقول: ما ابتدع عَالِمٌ قط، ولكنه استفتى مَنْ ليس بعالِم.

(١) متفق عليه .

قال مالك بن أنس – رحمه الله – : بكى ربيعة يوماً بكاءً شديداً فقيل له: مصيبةٌ نزلت بك ؟ فقال: لا . ولكن استفتي مَنْ لا علم عنده .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قد علمت من يهلك الناس، إذا جاء الفقه مِنْ قِبَل الصَّغير، استعصى عليه الكبير، وإذا جاءه الفقه من قِبَل الكبير تابعه الصَّغير فاهتديا .

وقال ابن مسعود ﷺ : لا يزال الناسُ بخيرٍ ما أخذوا العِلْمَ من أكابرهم ، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا .

واختلف العلماء فيما أراد بالصغار فقال ابن المبارك: هم أهل البدع. لأنَّ أهل البِدَع أصاغر في العلم، ولأجل ذلك صاروا أهل بدع .

وقال الباجي: يحتمل أن يكون الأصاغر مَنْ لا عِلْم عنده. قال: وقد كان عمر ﷺ يستشير الصِّغَار، وكان القُرَّاء أهل مشاورته كهولاً وشُبَّاناً، قال: ويحتمل أن يريد بالأصاغر مَنْ لا قدر له ولا حال، ولا يكون ذلك إلاَّ بنبذ الدِّين والمروءة ، فأمَّا مَن التزمهما فلابـُدَّ أن يَسْمُوا أمره، ويعظم قدره .

وممَّا يوضِّح هذا التأويل ما خرَّجه ابن وهب بسندٍ مقطوعٍ عن الحسن قال: العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممَّا يصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بترك العبـادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضرُّ بترك العِلْم، فإنَّ قوماً طلبوا العبادة، وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أُمَّة محمَّد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا – يعني الخوارج – والله أعلم . لأنَّهم تجرأوا على القرآن ولم يتفقَّهوا فيه، حسبما أشار إليه في الحديث (**يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم**). وَرُوِيَ عن مكحول أنَّه قال: تفقه الرعاع فساد الدين والدنيا، وتفقه السَّفَلة فساد الدين[1].

(١) الشاطبي : الاعتصام ٢/١٦٤ - ١٧٢ (بتصرُّف) .

المبحث الأوَّل

أسباب التفرُّق والاختلاف

المجتمع الإسلامي مجتمعٌ عالميٌ ، بمعنى أنــَّه مجتمع غير عنصري ولا قومي ولا قائم على الحدود الجغرافية ، فهو مجتمعٌ مفتوحٌ لجميع بني الإنسان ، دون النظر إلى جنسٍ أو لونٍ أو لغةٍ .

إنَّ الإسلام ينفي منذ اللحظة الأولى كُلَّ نعرة جنسية أو عنصرية، فيرد البشرية كلها إلى أصلٍ واحدٍ ، ويقرِّر أنْ لا فضل لجنسٍ فيها على جنس ، ولا ميزة لنعصرٍ فيها على عنصر ، وإنَّ اختلاف الألوان واللغات لا يدل على ميزة ولا أفضلية ، ولم يرد به إلاَّ التعارف لا التناكر ، وإنَّ هناك ميزاناً واحداً لتقدير الأفضلية هو تقوى الله وطاعته ، والعمل الصالح في عباده ، وهي شخصية لا علاقة لها بالأجناس والألوان .

{ يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ } (1) . لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلاَّ بالتقوى .

وبذلك ينفي عن المجتمع الإسلامي فكرة التمييز العنصري منذ اللحظة الأولى ، ويفتح أبوابه للبشر عامَّة على قدم المساواة الكاملة، وعلى أساس الشعور الإنساني الخالِص، وليس أكره للحس الإسلامي من ذلك التعصُّب الذي تثيره نعرة الجنس، أو نعرة اللون. ومِنْ ثَمَّ تملك جميع الأجناس البشرية وجميع الألوان، وجميع اللغات، أن تجتمع في حمى الإسلام، وفي ظلٍّ نظامه الاجتماعي، وهي تحس آصرة واحدة ، تربط بينها جميعاً آصرة الإنسانية،

---

(1) الحجرات : ١٣

التي لا تفرّق بين أسود وأبيض، ولا بين شمالي وجنوبي، ولا بين شرقي وغربي ، لأنَّهم جميعاً يلتقون عند الرابطة الإنسانية الكبرى.

قال تعالى: { **يا أيها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخَلَقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً** } (١).

وهذا رسول الله ﷺ يقول : (**ليس منَّا مَنْ دعا إلى عصبية ، وليس منَّا مَنْ قاتل على عصبية ، وليس منَّا مَن مَاتَ على عصبية**) (٢) .

إنَّ الإسلام لا يعرف تلك الحدود الإقليمية ، كما أنَّه لا يعرف حدود الأجناس والألوان ، فالأرض لله جميعاً ، وقد خلقها بما فيها لهذا المخلوق (الإنسان)، قال تعالى : { **وإذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرْضِ خليفة** } (٣) .

والجنس البشري كله مستخلف في هذه الأرض لعمارتها وإنمائها، واستغلال كنوزها ، والناسُ كُلُّهم إخوة ، لا ينالون رحمة الله وعونه ما لم يتراحموا فيما بينهم، ويتعاونوا على العمل الصالح، والرَّسُولُ ﷺ يقول: (**ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**) (٤)بدون تخصيص لجنس ولا لعنصر ، بل بدون تخصيص لأتباعه المسلمين (٥) .

وحين يزيل الإسلام تلك الحواجز الجغرافية أو العنصرية التي تقوم عليها فكرة الوطن القومي ، فإنَّه لا يلغي فكرة الوطن على الإطلاق ، إنَّه يبقي المعنى الطَّيِّب وحده لهذه الفكرة ، معنى التجمُّع والتآخي والتعاون والنِّظام ، ومعنى الهدف المشترك الذي تلتقي عليه الجماعة من الناس، فيجعل

---

(١) النساء : ١
(٢) أخرجه أبو داود
(٣) البقرة : ٣٠
(٤) أخرجه الشيخان .
(٥) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي ص ٩٥ - ٩٦ (بتصرُّف) .

الوطن فكرة في الشعور لا رقعةً من الأرض ، هذه الفكرة يجتمع في ظِلِّها النَّاسُ من كُلِّ جنسٍ ولونٍ وأرض، فإذا هم أبناء وطن واحد، وإذا هم إخوة في الله، وإذا هم متعاونون على ما فيه خيرهم، وخير البشرية جميعاً ، تلك الفكرة هي الإسلام ، { **إنَّما المؤمنون إخوة** } (١).

قال ﷺ : (**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً**) (٢).

وقال عليه الصلاة والسلام : (**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى**) (٣).

وحينما يستعرض الإنسان أحوال المسلمين ، ويرى تفرُّقهم بعد وحدة، وضعفَهُم بعد قوة ، يُدْرِك يقيناً أنَّ وراء هذا الاختلاف والافتراق أسباباً أدَّت إلى هذه النتائج، وهي كثيرة لا نستطيع استقصاءها وتَتَبُّع جذورها. وحسبنا أن نذكر أهمها ليحذر المسلمون منها، وليعودوا إلى الصِّراط المستقيم، والاعتصام بحبله المتين، حتى يعود إليهم مجدهم وعِزَّهم وقوَّتهم.

أسباب الاختلاف والتفرُّق :

إنَّ أسباب الاختلاف كثيرة لا يمكن حصرها ، ولهذا سوف نشير إلى أهمِّها – كما ذكرها الشاطِبيُّ :

السبب الأول : أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنَّه من أهل العِلْم والاجتهاد في الدِّين ، ولم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ، ويعد رأيه رأياً ، وخلافه خلافاً .

السبب الثاني : اتباع الهوى، ولذلك سُمِّي أهل البدع أهلُ الأهواء، لأنَّهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها

---

(١) الحجرات : ١٥

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الشيخان .

حتى يصدروا عنها، بل قدَّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثُمَّ جعلوا الأدلَّة الشرعية منظوراً فيها، من وراء ذلك.

<u>السبب الثالث :</u> التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحقّ، وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وما شابه ذلك، وهو التقليد المذموم، فإنَّ الله ذَمَّ ذلك في كتابه كقوله **{بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ }** [1] .

<u>السبب الرابع :</u> الجهل وقِلَّة العلم الشرعي ، وعدم الرسوخ فيه ، والعصبية للأشخاص والجماعات [2] .

قال ابن القَيِّم : " إنَّ الاختلاف ~~سببه~~ اشتباه الحق وخفائه ، وهذا لعدم العلم الذي يميز بين الحقّ والباطل " .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " واعلم أنَّ أكثر الاختلاف بين الأمَّة الذي يورِّث الأهواء تجده من هذا الضرب ، وهو أن يكون كُلُّ واحد من المختلفين مصيباً فيما يثبته أو في بعضه مخطئاً في نفي ما عليه الآخر " .

ثُمَّ قال : " فإنَّ أكثر الجهل إنَّما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب لا في الإثبات ، لأنَّ إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه " .

ثُمَّ تابع شيخ الإسلام حديثه عن الاختلاف المذموم وأسبابه فقال: "وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه فساد النِّيَّة، لِمَا في النفوس من البغي والحسد، وإرادة العلو في الأرض، ونحو ذلك. فيجب لذلك ذم قول غيره وفعله أو غلبته ليتميز عليه، أو يحب قول مَنْ يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة، ونحو ذلك لِمَا في قيام قوله من حصول الشرف له والرئاسة، وما أكثر هذا من بني آدم، وهذا ظلم. ويكون سببه تارةً جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه ، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به

---

(١) الزخرف : ٢٣

(٢) الشاطبي : الاعتصام ٦٧٩/٢ - ٦٨٨ (باختصار) .

أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم، أو في الدليل ، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحقّ حكماً ودليلاً، والجهل والظلم هما أصل كُلِّ شَرّ [1] كما قال سبحانه **{ وحملها الإنسانُ إنَّه كان ظلوماً جهولاً }** [2] .

أسبابُ التَّفَرُّقِ :

وإذا بحثنا عن أسباب التفرُّق تبَيَّن لنا أنَّ هناك أسباباً داخلية تعود إلى المسلمين أنفسهم ، وأسباباً خارجية من كيد أعدائهم .

أمَّا الأسبابُ الدَّاخلية فتتمثَّل فيما يلي :

١) البُعْد عن الدِّين الصَّحيح :

حيث أضحى كثيرٌ من المسلمين يفهمون الإسلام على أنَّه عبادة فقط ، أو مواعظَ وقصص تُتْلَى على مسامع الناس ، أو احتفالات في مناسبات معيَّنة، ولا يفقهون أنَّ الإسلام لابـُدَّ أن يكون كُلاًّ متكاملاً عقيدةً، وشريعةً، وعبادةً، ومعاملةً، وأخلاقاً، ولابـُدَّ أن يلازم القول التطبيق، وأن يقرن العلم بالعمل، وأن يلتزم المنهج الصحيح على هدي الكتاب والسُنَّة، وأن يعود إليه جوهره، وهو التوحيد الخالص [3] .

والبُعد عن الدين الصحيح أدَّى إلى انفلات كثيرٍ من المسلمين، وتفرُّقهم، فأصبحت تصرُّفاتهم وسلوكياتهم لا تفرِّق بين الحلال والحرام، وجرى معظمهم وراء شهوات الدُّنيا، التي تفرِّق ولا تُجَمِّع، فكان ما أصابهم من انقسامٍ وتفرُّقٍ مذموم، وغفلةٍ عن إقامة الوحدة، مع أنَّها واجبة شرعاً. ومال بعضُ الحُكَّام عن الصِّراط المستقيم، فأهملوا العدل والشورى، وإحقاق الحق،

---

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ١٢٧/١

(٢) الأحزاب : ٧٢

(٣) العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر ، للباحث ، ص ٩١ - ٩٢ ط٢ ، ١٩٩٣م .

فنتج عن ذلك الفساد والظُّلم والاستبداد، وظهور حركات انفصالية عن جسم الأُمَّة، وصار يضرب بعضهم رقاب بعض، ويعادي بعضهم بعضاً حتى وصل الحال إلى استعانة المسلم بغير المسلم ضد أخيه المسلم ممَّا مكَّن للعدو من بذر بذور الشقاق والخلاف، وتمزيق شمل المسلمين، وكأنَّ التاريخ يعيد نفسه عندما استعان ابن العلقمي بالتتار ضد الخليفة العباسي، وعندما استعان الفاطميون بالصليبيين ضد الأيوبيين. ولا يزال هذا السلوك الشائن لدى بعض ضعاف الإيمان الذين نسوا قوله تعالى **{ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّه مِنْهُم }** (1). وقوله سبحانه **{ يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ}**(2).

٢) العصبية الجاهلية والدَّعوة إلى القومية :

إنَّ الإسلام دعوة إلى الأخوة في الله، والتعارف والتآلف، ولا فضل فيه لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلاَّ بالتَّقوى **{ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ }** (3) .

ومن هنا لا يعرف الإسلام العصبية للقوم، ولا للون، ولا للغة، لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى تفريق المسلمين، ويفصل المسلم عن أخيه، وكُلّ عصبية جاهلية مرفوضة في الإسلام، وكل فكرة تقسم المسلمين وتجعلهم أحزاباً فكرةٌ باطلة تخالف مقاصد الإسلام وما يرمي إليه، وذلك لأنَّه يدعو إلى الاجتماع والوئام، والتواصي بالحقِّ، والتعاون على البرِّ والتقوى، كما يدل على ذلك قوله

---

(1) المائدة : ٥١
(2) الممتحنة : ١
(3) الحجرات : ١٣

تعالى: { **يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا** } (١) .

وقوله تعالى: { **هو الذي أيَّدكَ بنصرهِ وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفتَ بين قلوبِهِم ولَكِنَّ اللهَ ألَّفَ بينهم إنَّه عزيزٌ حكيم** } (٢) .

فانظر أيها المؤمن الرَّاغب في الحقِّ، كيف يُحَارِبُ الإسلامُ التفرُّقَ والاختلاف، ويدعو إلى الاجتماعِ والوئام، والتمسُّك بحبل الحق والوفاة عليه، تعلم بذلك أنَّ هدف الدعوة إلى القوميةِ غير هدف الإسلام، وأنَّ مقاصدها تخالف مقاصد الإسلام، ويدل على ذلك أيضاً أنَّ فكرة القومية والدعوة إليها، وردت إلينا من أعدائنا الغربيين، وكادوا بها المسلمين، ويقصدون من ورائها فصل بعضهم وتحطيم كيانهم، وتفريق شملهم على قاعدتهم المشئومة (فَرِّقْ تَسُدْ)، وكم نالوا من الإسلام وأهله بهذه القاعدة النحيسة مِمَّا يحزن القلوب ويدمي العيون .

والعصبية والقومية دعوة جاهلية نكراء، وحركة هدم وتخريب، تفصل العربي عن العجمي، لأنَّ كُلاًّ يتعصَّب لقومه وجنسه، فإذا تعصَّب العربي لقومه فليتعصَّب الإندونيسي لقومه، والباكستاني لقومه، والتركي لقومه، والكردي لقومه ... وهكذا تنقسم الأُمَّة الإسلامية الواحدة إلى قومياتٍ شتَّى بل إلى أُمَمٍ شَتَّى، وما هكذا يكون الإسلام. وما هكذا يكون المسلمون .

إنَّ الإسلامَ نهى عن دعوةِ الجاهليلة وحذَّر منها، وأبدى في ذلك وأعاد في نصوصٍ كثيرة ، بل قد جاءت النصوص تنهى عن جميع أخلاق الجاهلية وأعمالهم إلاَّ ما أقرَّه الإسلام من ذلك .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ - ١٠٣

(٢) الأنفال : ٦٣

ولا ريب أنَّ الدعوة إلى القوميات ومنها القومية العربية، من أمر الجاهلية، لأنَّها دعوة إلى غير الإسلام، ومناصرة لغير الحَقِّ، وكم جرت دعوى الجاهلية على أهلها من ويلات وحروب وقودها النفوس والأموال والأعراض وعاقبتها تمزيق الشمل وغرس العداوة والشحناء في القلوب والتفريق بين القبائل والشعوب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – " كُل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريق ، فهو من عزاء الجاهلية، بل لَمَّا اختصم مهاجريّ وأنصاريّ، فقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. وقال الأنصاريُّ : يا للأنصار. قال النبيُّ ﷺ: (**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**) ، وغضب لذلك غضباً شديداً ... انتهى .

وممَّا ورد في ذلك من النُّصُوص قوله تعالى **{ وَقَرْنَ فِي بيوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ }**[1]. وقال تعالى: **{ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كفروا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ }** [2] .

وفي سُنَن أبي داود عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: (**لَيْسَ منَّا مَنْ دَعَا إلى عصبية، ولَيْسَ منَّا مَنْ قاتلَ على عَصَبِيَّة، ولَيْسَ منَّا مَنْ مات على عصبية**)

وفي صحيح مسلم أيضاً عن النبي ﷺ أنَّه قال : (**إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد ، ولا يفخر أحدٌ على أحد**) .

ولا ريب أنَّ دعاة القومية يدعون إلى عصبية ، ويغضبون لعصبية ، ويقاتلون على عصبية ، ولا ريب أيضاً أنَّ الدعوة إلى القومية تدعو إلى البغي والفخر، لأنَّ القومية ليست ديناً سماوياً، يمنع أهله من البغي والفخر،

---

(١) الأحزاب : ٣٣

(٢) الفتح : ٢٦

وإنَّما هي فكرة جاهلية تحمل أهلها على الفخر بها والتعصُّب لها، على مَنْ نالها بشيء، وإن كانت هي الظالمة وغيرها المظلوم .

ومِنَ النُّصُوص الواردة في ذلك ما رواه الترمذي وغيره عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال : (**إنَّ الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء، إنَّما هو مؤمنٌ تقي أو فاجر شقي ، النَّاسُ بنو آدم ، وآدمُ خُلِقَ من تراب، ولا فضل لعربيٍّ على عجميّ إلاَّ بالتقوى**) .

ومن ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح عن الحارث الأشعري أنَّ النبيَّ ﷺ قال : (**إنَّ الله أمر يحي بن زكريا بخمسٍ أن يعمل بهنَّ ، ويأمــر بني إسرائيل أن يعملوا بِهِنَّ**) ، فذكرها ثُمَّ قال النبيُّ ﷺ : (**وأنا آمركم بخمسٍ الله أمرني بهِنَّ : السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة ، وأنَّه مَنْ فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقةَ الإسلام من عُنُقه إلاَّ أنْ يراجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثِي جَهَنَّم**) . قيل : يا رسول الله: وإنْ صَلَّى وصام ؟ قال : (**وإنْ صَلَّى وصام وزعم أنَّه مسلم ، فادعو بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين المؤمنين عباد الله**) .

وهذا الحديث الصحيح مِنْ أوضح الأحاديث وأثبتها في إبطال الدعوة إلى القومية ، واعتبارها دعوة جاهلية ، يستحق دعاتها أن يكونوا من جثي جهنَّم ، وإن صاموا وصلُّوا وزعموا أنَّهم مسلمون.

ولا عبرة بالشبهات التي يسوقها دعاة القومية ، ومنها أنَّ النَّهْي عن الدعوة إلى القومية العربية والتحذير منها – يتضمَّن تنقُّص العرب ، وإنكار فضلهم .

والجواب أن يقال: لا شكَّ أنَّ هذا زعمٌ خاطئٌ ، واعتقادٌ غيرُ صحيح، فإنَّ الاعتراف بفضل العرب، وما سبق لهم في صدر الإسلام من أعمالٍ مجيدة لا يشك فيه مسلم، عرف التاريخ – كما أسلفنا – وقد ذكر غير واحد

من أهل العلم، ومنهم أبو العباس ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصِّراط المستقيم) أنَّ مذهب أهل السُّنَّة تفضيل جنس العرب على غيرهم، وأورد في ذلك أحاديث تدل على ذلك، ولكن لا يلزم من الاعتراف بفضلهم، أن يجعلوا عماداً يتكتَّل حوله، ويوالي عليه ويعادي عليه، وإنَّما ذلك مِنْ حَقِّ الإسلام الذي أعزَّهم الله به، وأحيا ذكرهم، ورفع شأنهم، فهذا لون وهذا لون، ثُمَّ هذا الفضل الذي امتازوا به على غيرهم، وما مَنَّ الله به عليهم من فصاحة اللسان، ونزول القرآن الكريم بلغتهم، وإرسال الرسول العام بلسانهم، ليس ممَّا يقدمهم عند الله في الآخرة، ولا يوجب لهم النجاة إذا لم يؤمنوا ويتقوا، وليس ذلك أيضاً يوجب تفضيلهم على غيرهم من جهة الدِّين، بل أكرم الناس عند الله أتقاهم، كما تقدَّم في الآية الكريمة، والحديث الشريف، بل هذا الفضل عند أهل التحقيق، يوجب عليهم أن يشكروا الله سبحانه أكثر من غيرهم، وأن يضاعفوا الجهود في نصر دينه الذي رفعهم الله به، وأن يوالوا عليه، ويعادوا عليه، دون أن يلتفتوا إلى قومية أو غيرها من الأفكار المسمومة، والدعوات المشئومة، ولو كانت أنسابهم – وحدها – تنفعهم شيئاً، لم يكن أبو لهب وأحزابه من أصحاب النار، ولو كانت تنفعهم بدون الإيمان، لم يقل لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح (**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئاً**)، وبذلك تعلم أيها القارئ السليم من الهوى أنَّ الشبهة المذكورة شبهة واهية لا أساس لها من الشرع المطهَّر، ولا من المنطق السَّليم البعيد عن الهوى .

ولا شبهة أيضاً لقول بعضهم أنَّه قد وردت عن النبي ﷺ أنَّه قال: (**إذا ذلَّ العرب ذلَّ الإسلام**) قالوا: وهذا يدل على أنَّه انتصار للإسلام، ودعوة إليه. والجواب أن يقال: يعلم كُلُّ ذي لُبٍّ سليمٍ، وبصيرةٍ بالإسلام، أنَّ هذه سفسطة في السمعيات، ومغالطة في الحقائق ، وتأول للحديث على غير تأويله، سواء

صحَّ أم لم يصحّ، فإنَّ الواقع يشهد بخلاف ما ذكره القائل فقد ذلَّ العرب يوم بدر، ويوم الأحزاب، وصار في ذُلِّهم عزٌّ للإسلام وظهوره، وانتصر العرب يوم أُحُد، وصار انتصارهم ذُلٌّ للمُسْلمينَ، والمضرَّة عليهم ..

ولكنَّ الله – سبحانه – لطف بأوليائه، وأحسن لهم العاقبة، فهل يستطيع هذا القائل أن يدَّعي خلاف هذا الواقع ؟ وهل يمكن أن يقول: إنَّ انتصار العرب الكافرين بالله ، المحاربين لدينه ، انتصارٌ للإسلام ؟

مَنْ قال هذا فقد قال خلاف الحقَّ بالباطِلِ ، ويخدع ضعفاءَ البصائرِ .. سبحان الله ما أعظم شأنه !!

ولو صحَّ الحديث لكان معناه: إذا ذلَّ العرب الحاملون راية الإسلام والدعوة إليه، لا العرب المتنكرون له، الداعون إلى غيره[1] وإنَّما فضلُ العرب إنَّما هو لمزايا تحقَّقت فيهم ، فإذا ذهبت بسبب إهمالهم لإسلامهم، ذهب فضلهم، ومن أخذ بها من الأعاجم كان خيراً منهم (**لا فضل لعربي على عجمّي إلاَّ بالتقوى**)، ومن هنا يظهر ضلال مَنْ يدعو إلى العروبة وهو لا يتَّصف بشيءٍ من خصائصها المفضّلة .

ولا يجوز أن يرد في سُنَّة رسولِ الله ﷺ ما يخالف القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة أبداً، فإنَّ كلام الله لا يتناقض، وكلام رسولِ الله ﷺ كذلك، والسُنَّة لا تخالف القرآن، بل تصدِّقه وتوافقه، وتدل على معناه وتوضِّح ما أُجْمِلَ فيه .

---

(١) والحديث المذكور ضعيف الإسناد ، ولا يصح عن النبي ﷺ . قال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في (مجمع الزوائد) كا ذكر هذا الحديث بلفظ (**إذا ذلّت العرب ذلَّ الإسلام**) رواه أبو يعلى ، وفي إسناده محمد بن الخطاب البصري ضعَّفه الأزدي وغيره ووثّقه ابن حبان . بل الحديث موضوع كما حقق ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسة الأحاديث الضعيفة والموضوعة رقم ٦٦٣

وقد علَّق الله سبحانه في القرآن النَّصر على الإيمان بالله، والنَّصر لدينه فلا يجوز أن يرد في السُنَّة ما يناقض ذلك، وهذه الشُبْهَة وأمثالها، تُفَسِّرُ لنا ما صحَّ به الحديث عن النبيِّ ﷺ من حديث حذيفة أنَّه قال: كان النَّاسُ يسألون الرسول ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله ! إنَّا كُنَّا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير منْ شَرّ ؟ قال : (**نعم**). قلت: وهل بعد ذلك الشَّرِّ من خير ؟ قال: **(نعم)**، وفيه دَخَن. قلت: وما دخنه ؟ قال: **(قومٌ يَسْتَنُّونَ بغير سُنَّتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنْكِر**). قلت: فهل بعد ذلك الخير منْ شَرّ ؟ قال: **(نعم ، دعاةٌ على أبواب جهنَّم، مَنْ أجابهم إليها، قذفوه فيها)**. قلت: يا رسول الله! صفهم لنا. قال: **(هم من بني جلدتنا، ويتكلَّمون بألسنتنا)**. قلت: فما تأمرني يا رسول الله إنْ أدركني ذلك ؟ قال: (**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**). قلت: فإنْ لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: (**فاعتزل تلك الفرَق كلها، ولو أنْ تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**) [(١)] .

فهذا الحديث العظيم الجليل يرشدك أيها المسلم إلى أنَّ هؤلاء الدعاة اليوم الذين يدعون إلى أنواع من الباطل، كالقومية العربية، والاشتراكية والرأسمالية الغاشمة، وإلى الخلاعة، والحرية المطلقة، وأنواع الفساد، كلهم دعاة على أبواب جهنم، سواء علموا أم لم يعلموا، مَنْ أجابهم إلى باطلهم قذفوه في جهنَّم .

ولا شكَّ أنَّ هذا الحديث الجليل من أعلام النبوة ، ودلائل صحة رسالة نبينا محمد ﷺ حيث أخبر بالواقع قبل وقوعه ، فوقع كما أخبر [(٢)] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري .
(٢) عبد العزيز بن باز : نقد القومية العربية في ضوء الإسلام والواقع ، مكتبة المعارف ، الرياض (بتصرُّف) .

٣ – **ومن أسباب الفرقة والاختلاف التعصُّب للمذهب والجماعة،** وخلاف ذلك، فالمتعصِّب يتمسَّك برأيه ، ويرفض ما يخالفه حتى ولو كان حقّاً وما ذاك إلاَّ أنَّ التعصُّبَ يدفع صاحبه إلى معاداة مَنْ يخالف ما يدعو إليه ويتعصَّب لرأيه ومذهبه. وهذه في الحقيقة من خصَال اليهود كما قال تعالى: **{ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُم }** (١) .

فاليهود يعرفون الحقَّ قبل ظهور النبيِّ ﷺ ، لكن عندما جاء من غيرهم نابذوه العداء، ورفضوه وكذَّبوه ولم ينقادوا له، بل أعرضوا، وتولَّوا عنه كما قال سبحانه **{ وَكَانُواْ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ}**(٢).

٤ – **ومن أسباب الاختلاف والتفرُّق والضعف : الجهل** الذي جعل في المسلمين مَنْ لا يُمَيِّز بين الخمر والخلِّ ، فيتقبَّل السفسطة قضية مسلمة، ولا يعرف أن يرد عليه – وأشد خطراً من الجهل العِلْم الناقص، لأنَّ الجاهل إذا قَيَّض الله له مرشداً عالماً أطاعه، ولم يتفلسف عليه، فإمَّا صاحب العلم الناقص فهو لا يدري، ولا يقتنع بأنَّه لا يدري .

وقد نشأ عن هذا العلم الناقص، فساد الأخلاق بفقدان العلم السليم المستنير، والأخلاق المستقيمة عماد الأُمم، وقد سرت عدوى الفساد وانحطاط الأخلاق من عامَّة الناس إلى بعض أولي الأمر، وتلك قاصمة الظَّهر .

وقد ترتَّب على الجهل آفة أخرى وهي التقليد بغير علم ومعرفة، وهذا السبب ينضم إلى السبب الذي قبله وهو التعصُّب حيث نرى الجاهل يحب أن يُقَلِّد غيره ، أو يتعصَّب لذلك وهو تقليد مذموم يؤدِّي بصاحبه إلى معاداة الحق

---

(١) البقرة : ٩١
(٢) البقرة : ٨٩

وأهله. وعندما نقول التقليد فإنّنا لا نعني تقليد العلماء، وأهل المذاهب المتبوعة، بل التقليد لكلٍّ ما يتلقفه الشخص دون تمحيص ودراسة، بل إذا أعجب برأيه نَافَح عنه ودعا إليه تقليداً عن جهل، وصمَّم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق .

ولذا ذمَّ الله ذلك في كتابه كقوله تعالى **{إنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ..}** ثُمَّ قال **{ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }** وقوله **{ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ }** فنبَّههم على وجه الدليل الواضح فاستمسكوا بمجرَّد تقليد الآباء فقالوا **{ بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}**، وهو مقتضى الحديث المتقدِّم أيضاً في قوله **(اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً)** الخ. فإنَّه يشير إلى الاستنان بالرِّجال كيف كان.

وفيما يُرْوَى عَن علي بن أبي طالبٍ ﷺ : " إيَّاكُم والاستنان بالرجال فإنَّ الرجل يعمل بعمل أهل الجنَّة ثُمَّ ينقلب – لعلم الله فيه – فيعمل بعمل أهل النار فيموت، وهو من أهل النار . وإنَّ الرجل يعمل بعمل أهل النار فينقلب – لعلم الله فيه – فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة، فإنْ كنتم لابُـدَّ فاعلين فبالأموات لا بالأحياء". فهو إشارة إلى الأخذ بالاحتياط في الدِّين، وإنَّ الإنسان لا ينبغي له أن يعتمد على عمل أحد البتَّة، حتى يثبت فيه ويسأل عن حكمه إذ لعلَّ المعتمَد على عمله، يعمل على خلاف السُّنَّة .

ولذلك قيل : لا تنظر إلى عمل العالِم ، ولكن سله يصدقك .

وقالوا: ضعف الروية أن يكون رأى فلاناً يعمل فيعمل مثله، ولعلَّه فعله ساهياً، وليس من هذا القبيل عمل أهل المدينة، وما أشبه ذلك، لأنَّه دليل ثابت عند جماعة من العلماء على وجهٍ ليس ممَّا نحنُ فيه. وقول علي ﷺ: " فإنْ كنتم لابُـدَّ فاعلين فبالأموات" نكتة في الموضع. يعني الصحابة ومَن جرى

مجراهم ممَّن يؤخذ بقوله، ويعتمَد على فتواه. وأمَّا غيرهم ممَّن لم يحل ذلك المحل فلا، كأن يرى الإنسان رجلاً يحسن اعتقاده فيه، فيفعل فعلاً محتملاً أن يكون مشروعاً أو غير مشروع ، فيقتدي به على الإطلاق، ويعتمد عليه في التعبُّد، ويجعله حُجَّة في دين الله، فهذا هو الضلال بعينه، ما لم يثبت بالسؤال والبحث عن حكم الفعل ممَّن هو أهل الفتوى، وهذا الوجه هو الذي مال بأكثر المتأخرين من عوام المبتدعة إذا اتفق أن ينضاف إلى شيخ جاهل، أو لم يبلغ مبلغ العلماء، فيراه عملاً، فيظنه عبادة، فيقتدي به كائناً ما كان ذلك العمل، موافقاً للشرع أو مخالفاً، ويحتج به على من يرشده ويقول: كان الشيخ فلان من الأولياء وكان يفعله، وهو أولى أن يقتدى به، من علماء الظاهر ، فهو في الحقيقة راجع إلى تقليد من حُسْن ظَنّه فيه، أخطأ أو أصاب، كالذين قلَّدوا آباءهم، وإنَّما قصارى هؤلاء أن يقولوا إنَ آباءنا أو شيوخنا لم يكونوا ينتحلون مثل هذه الأمور سدى، وما هي إلاَّ مقصورة بالدلائل والبراهين، إنَّهم يرون أن لا دليل عليها ولا برهان يقد إلى القول بها .

٥ - **ومن أسباب التفرُّق والاختلاف اتباع الهوى :** ولذلك سُمِّي أهل البدع، أهل الأهواء، لأنَّهم اتَّبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدَّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثُمَّ جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح، ومَن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم، من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ما عندهم أو طلباً للرياسة، فلابُدَّ أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأوّل عليهم فيما أرادوا - حسبما ذكره العلماء ونقله الثقات من مصاحبي السلاطين .

فالأولون ردوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأساءوا الظنَّ بما صحَّ عن النبي ﷺ ، وحسَّنُوا ظنَّهم بآرائهم الفاسدة، حتَّى ردُّوا كثيراً من أمور الآخرة وأحوالها من الصراط والميزان، وحشـــر الأجساد، والنعيم العذاب الجسمي، وأنكروا رؤية الباري، وأشباه ذلك. بل صيَّروا العقل شارعاً جاء الشرع أولاً. بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل ، إلى غير ذلك من الشفاعات .

والآخرون خرجوا عن الجادَّة إلى اتباع الهوى في فتاواهم فضلُّوا وأضلُّوا .

وقد ثبت أنَّ اتِّباع الهوى هو أصل الزَّيغ عن الصراط المستقيم، قال الله تعالى { **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه** }[1]، فمن شأنهم أن يتركوا الواضح، ويتَّبعوا المتشابه، عكس ما عليه الحق في نفسه .

وقد رُوِيَ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وذُكِرَت الخوارِجُ وما يُلْقُونَ في القرآن – فقال : يؤمنون بمحكمه، ويهلكون عند متشابهه. وقرأ ابن عباس الآية { **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه** } الآية .

ولم يأت في القرآن ذكر الهوى إلاَّ في معرض الذَّمِّ ، حكى ابن وهب عن طاووس أنَّه قال : ما ذكر الله هوى في القرآن إلاَّ ذمَّه، وقال { **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ الله** } إلى غير ذلك من الآيات. وَحُكِيَ أيضاً عن عبد الرحمن بن مهدي أنَّ رجلاً سأل إبراهيم النَّخعي عن الأهواء أيها خير ؟ فقال: ما جعل الله في شيءٍ منها مثقال ذرَّةٍ من خير، وما هي إلاَّ

(١) آل عمران : ٧

زينة الشيطان ، وما الأمر إلاَّ الأمر الأوّل – يعني ما كان عليه السلف الصالح .

وخرَّج عن الثوري أنَّ رجلاً أتى إلى ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال: أنا على هواك. فقال له ابن عباس: الهوى كلّه ضلالة أي شيء أنا على هواك .

هذه الأسباب الثلاثة – التعصُّب ، التقليد ، اتباع الهوى – راجعةٌ في التحصيل إلى وجهٍ واحدٍ وهو الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرُّص على معانيها بالظَّنِّ من غير تثبُّت، أو الأخذ فيها بالنظر الأوّل، ولا يكون ذلك من راسخٍ في العلم[1] .

ويقول الشيخ – محمد الغزالي – رحمه الله – في معرض حديثه عن الجهل وأثر الهوى في تفرُّق الأُمَّة : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق الناسَ لينقسموا ويختلفوا، لقد شرع لهم ديناً واحداً، وأرسل أنبياءه تترى، ليقودوا النَّاس كافَّة في طريقٍ واحدٍ، وحرَّم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين وأنْ يتفرَّقوا حوله عزين .

بيد أنَّ الشهوات المتنزية ، تناست هذه الوصية الكريمة ، وتنكَّرت للوحي الإلهي العظيم، فانقسم النَّاسُ أحزاباً، وصار كُلُّ حزبٍ يكيد للآخر، ويتربَّص به، قال تعالى: **{ يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبات وَاعْمَلُوا صَالِحاً إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عليم * وأنَّ هذه أُمَّتُكم أُمَّةً وَاحدةً وَأنا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أمْرَهُم بَيْنَهُم زُبُراً كُلُّ حزبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِم حتى حِينٍ }** [2] .

---

(١) الشاطبي : الاعتصام ١٦٤/٢ - ١٨٢ (بتصرُّف) ط . دار عمر بن الخطاب ، اسكندرية .

(٢) المؤمنون : ٥١ - ٥٤

وبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ اتِّبَاعَ الهوى ، ومتابعة البغي هو سرّ هذا الافتراق الواسع .

والحقُّ أنَّ العلْمَ عندما ينفصل عن الخلق ، ويفارقه الإخلاص، يمسي وبالاً على أهله ، وعلى الناس ، وقد كان الناسُ قبل الدين يظلهم الجهل في شعابه الحائرة ، فلمَّا جاء الدين واستبدَّ به دهاقينه، وتاجروا بعلومه لأنفسهم ومطامعهم ، تاهت جماهير العامَّة في سُبُلٍ جائرة .

وقد كان رسولُ الله ﷺ يستعيذ بالله من علمٍ لا ينفع فقال: **(إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم بعدي : منافقٌ عليم اللسان)** (١).

أجل . إنَّ القلب الخَرِب يجعل مِنَ العلْم سلاحاً للفساد . وقد تأذَّى العالم في القديم والحديث من هذا العلْم المدمِّر ، ونبأنا الله عزَّ وجلَّ أنَّ العلماء بألسنتهم لا بأفئدتهم ، هم الذين فرّقوا شمل البشر ، قال تعالى :
{ وَمَا تَفَرَّقُواْ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم } (٢) .

وقال : **{ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوه مِنْ بعدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُم }** (٣) .

فانظر إلى ضراوة العلم عندما يفقد الإخلاص لله ، والرفق بالعباد ، كيف يثير الفرقة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .

إنَّ اختلاف الأفهام واشتجار الآراء ليس بمستغرب في الحياة، ولكن ليس هذا سبب التقاطع والشقاق ، إنَّما يعود سبب الشقاق إلى انضمام عوامل أُخرى ، تستغل تباين الأنظار والأفكار للتنفيس عن أهواءٍ باطنة .

---

(١) رواه البزّار .
(٢) الشورى : ١٤
(٣) البقرة : ٢١٣

ولَمَّا كان هذا الاختلاف المريب مفسداً لدين الله، ودنيا الناس، اعتبره الإسلام انفصالاً عنه، وكفراً. قال الله عزَّ وجلَّ: { **إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيعاً لَسْتَ منهم في شيءٍ إنَّما أَمْرُهُم إلى الله ثُمَّ ينبِّهم بما كانوا يفعلون** } (1) .

وحذَّر اللهُ المسلمينَ من الخِلاَف في الدِّين ، والتفرُّق في فهمه شيعاً متناحرة كما فعل الأُوَل (2) { **ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ * يوم تبيض وجوهٌ وتسودَ وجوه فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم أكفرتُم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون**}(3).

وممَّا ترتَّب على التقليد والجهل شيوع الضلالات والبِدَع في بعض المجتمعات الإسلامية، وكاد التوحيد الخالص – للأسف الشديد – يحجبه حجب من الشرك والجهل والضلالة، وطرأت على النظام الديني ، بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين، وشغلتهم عن المنهج الصحيح ، والدين الخالص ، وعن الدنيا بمفهومها القرآني .

وميزة المسلمين بين أُمم الأرض وفضلهم، إنَّما هي من هذا الدين، وإعجازه في صحته وحفظه، لأنَّه يمتاز بأنَّه وحي الله، وشريعته، ووضعه المعجز، وشرعه الحكيم { **تنزيلٌ من حكيمٍ حميد**} (4) .

فإذا عملت فيه عقول النَّاس ، ودخلت فيه أعمالهم وأهواؤهم ، لم يكن له على الأديان التي حرَّفها أهلها ، والنظم التي نسجتها أيدي النَّاس إلاَّ بمقدار ما

---

(1) الأنعام : ١٥١
(2) محمد الغزالي : خُلق المسلم ١٨٩ - ١٩٠
(3) آل عمران : ١٠٥ - ١٠٧
(4) حم السجدة : ٤٢

فيه من الوحي المحفوظ ، والعِلْم المعصوم، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة، ولم يكن حقيقياً بأن تخضع لــه العقول وينجذب إليه الناس[1]، وهيهات أن تجتمع الأُمَّة على ضلالة ؟

ومن هنا وجب على علماء الأُمَّة الملتزمين بمنهج الكتاب والسُنَّة وسلف الأُمَّة الصالح – أن يبصروا المسلمين ، وأن يُحَذِّروا من البدع والضلالات ، ليتميز الحق من الباطل ، ويلتئم شمل الأُمَّة على الصراط المستقيم .

ومن أسباب الاختلاف والتَّفْرِقة – كيد أعداء الإسلام :

إنَّ أعداء الإسلام على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومعتقداتهم، لا يكُفُّون عن الكيد والدَّس، وبذر بذور الفرقة بين أبناء المسلمين، لأنَّهم يعلمون جيِّداً أنَّ الوحدة الإسلامية هي السر المنيع الذي تقف أمام شرِّهم وباطلهم وشهواتهم.

ولذلك فإنَّهم ما فتئوا يمكرون ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وجهاراً، لتفريق المسلمين، وتمزيق شملهم، حيث يشجِّعون الطائفية، والعصبية، والقومية، والوطنية، والعنصرية، وهم الذين حملوا على القضاء على الخلافة الإسلامية، رمز وحدة المسلمين، وهم الذين يغزون المسلمين بجحافلهم العسكرية، وبأفكارهم الهدَّامة، وثقافاتهم، وعقائدهم الباطلة، ليشككوا المسلمين في دينهم، فيختلفون ولا يأتلفون، وهم الذين زرعوا ويزرعون المشكلات بين الدول الإسلامية، بل بين أبناء المسلمين في البلد الواحد، ليفرِّقوهم مِنْ جهة،

(١) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤١ ، وانظر: العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر ، للباحث ص ٩٢

وليشغلوهم عن الوحدة من جهة أُخْرى، وها هي ساحة العالم الإسلامي الآن تموجُ بالفتَن التِي يذكي أوارها أعداء الإسلام.

ومن عجائب الأمور أن يركن بعضُ المسلمين إلى نفرٍ من هؤلاء وأن يواليهم، مع عداوتهم وحقْدهم. وغَفَل هؤلاء عن قوله تعالى **{وَلاَ تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكُم النَّار وما لكم من دونِ الله منْ أولياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرون}**[1]

ونسوا قول الله تعالى **{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }** [2] .

إنَّ أعداء الإسلام ، حاولوا ، ولا يزالون يحاولون ، أن يعملوا بكُلِّ ما يستطيعون على تفتيت جسم الأُمَّة الإسلامية ، لكي يتمكَّنوا من تضييق الخنَاق على المدِّ الإسلامي الذي أرَّق ويؤرِّق نفوسهم وعقولهم ، ولكنَّهم لم يستطيعوا ذلك حينما كان المسلمون أُمَّة واحدة، يعتصمون بحبل الله .

لذلك لم يقر لهم قرار ، ولم يهدأ لهم بال ، وأخذوا يحيكون الدَّسائس والمؤامرات ، ووجدوا أنَّ أفضل طريقة لتمزيق وتشتيت المسلمين تكمن في تفرُّقهم إلى فرق وأحزاب وجماعات . وهذا ما نلحظه منذ بداية الفتنة التي أدَّت إلى الافتراق في هذه الأُمَّة عندما جاء الخبيث الآثم ابن السوداء ، وأخذ يتربَّص بالمسلمين ، ويطَّلِع على أمورهم ، ويتصيَّد الفرص لإحداث الخلاف والفرقة .

وهناك – أيضاً – مَنْ أعلن إسلامه عندما رأى المسلمين قد بسطوا نفوذهم ، وفتحوا الديار ، فاضطرَّ إلى التظاهر بالإسلام ، ولكنه كان يكنُّ

---

(١) هود : ١١٣

(٢) البقرة : ١٣٠

الحقد والبُغْضَ ، ويتمنَّى أن يضرب ضربته لتمزيق شمل المسلمين ، وتفتيت وحدتهم ، ويسعى لإشعال الفتْنَة في صفوف المسلمين .

وإذا كان خطر الأعداء قديماً قد عمد إلى تفتيت وحدة المسلمين وتفريقهم . فإنَّ الأعداء في العصور المتتالية – وهم أنسال مَنْ سبقوا – قد نشطوا في هذا المجال بعد أن عرفوا أنَّ وحدة المسلمين تمنحهم قوة وعِزَّة . وهي الصخرة التي تتحطَّم عليها آمالهم في السيطرة على بلاد المسلمين ، وقد بدا ذلك واضحاً في آرائهم وتخطيطهم ، حيث تجمَّع المنصِّرون والمستعمرون فيما بينهم على الكلمة التالية – التي جاءت على لسان جارونز – " إنَّ القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا " .

ويُصَرِّح لورانس براون بالهدف الحقيقي للمُنَصِّرين من عملهم في العالم الإسلامي حين يقول : " إذا اتَّحدَ المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا – أيضاً – نعمة له ، أمَّا إذا بقوا متفرِّقين ، فإنَّهم حينئذٍ بلا وزن ولا تأثير " .

وكُلُّ المستعمرين والمُنَصِّرين وأعوانهم لا يخشون شيئاً مثل ما يخشون الوحدة الإسلامية، صرَّح بذلك القِس سيمون حينما قال: " إذا كانت الوحدة الإسلامية تكتُّلاً ضد الاستعمار الأوربي، ثُمَّ استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين في غير مظهر المستعمر، فإنَّ الوحدة الإسلامية حينئذٍ تفقد حجة من حجمها، وسبباً من أسباب وجودها " [1] .

ولهذا بدأت حركة الاستعمار الحديث من نقطة سيطرة الدولة العثمانية على القسطنطينية، قلعة الدولة الرومانية الشرقية، وسقوط آخر معاقل الإسلام في الأندلس (قرطبة) في أيدي الفرنجة.

---

(١) مصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار ١٩٢ ط . بيروت .الحل الإسلامي ١٦٢

واندفعت أوربا على إثر ذلك في عملية غزو جديدة للعالم الإسلامي ، تعارف الكُتَّاب – من بعد – على إطلاق كلمة الإستعمار عليها ، وهي في حقيقتها استخراب، حيث انطلقوا بجحافلهم، يطوقون العالم الإسلامي، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، ونزلوا بلاد المسلمين يمتصون دماء أبنائها، وينهبون خيراتها، ويعملون على إذلال المسلمين، وكانت حركة الاستعمار حلقة جديدة، ومرحلة متصلة بالحروب الصليبية القديمة .

وآية ذلك أنَّ اللُورد اللنبي بعد أن دخلت القوات البريطانية إلى القُدْس سنة ١٩١٨هـ قال كلمته الحاقدة الموحية بهذا المعنى: " الآن انتهت الحروب الصليبية " .

وجاءت المرحلة الثانية للاستعمار، وهي مرحلة تمزيق جسم الأُمَّة الإسلامية إلى أشلاء، وتقسيمها إلى دويلات، وبدأت تلك المرحلة بالحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م، وانتهت بهدنة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، حيث تمَّ توزيع الأجزاء الباقية من البلاد العربية والتابعة للدولة العثمانية بين فرنسا وانجلترا، وصدر وعد بلفور الذي أعطى للصهيونية العالمية حق إقامة دولة في فلسطين، وزرع جسم غريب في قلب العالم الإسلامي، ليعمل باستمرار على تمزيق الشمل وإحداث القلاقل وإشعال الفتن، ممهداً الطريق لإقامة إسرائيل الكبرى. وهكذا نجح الاستعمار وأعداء الإسلام في سياستهم (فَرِّق تَسُد) . وكان من أثر ذلك :

انفراط عقد الخلافة الإسلامية ، وتعدُّد الدُّول :

وممَّا كان له أكبر الأثر في نفوس المسلمين، وبالتالي تفرُّقهم وعدم الشعور بوحدتهم الإسلامية ، تعدُّد الدُّول وإثارة الخلاف فيما بينهم على حدود الأرض التي كان من ورائها الاستعمار، لتظل هذه الدول في نزاع مستمر، وإذكاء للعصبية الإقليمية، ونتج عن ذلك تعدُّد الأنظمة والمذاهب، والاتجاهات التي تستقي منها أنظمتها، وتبني عليها خططها، ووجهة نظرها، فبعضها

يتمسَّك بالإسلام – والحمدُ لله – ويدعو غيره إلى الاستمساك به ، والحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية، وبعضها يأخذ بالمذهب الاشتراكي، وآخر بالمذهب الرأسمالي، ورابع يريد القومية العربية، منسلخاً من الدين، وخامس يريد الوطنية (1) .

وهكذا تفرَّقت بهم المذاهب والسُّبُل، فتفرَّقوا وتشتَّتوا، لأنَّهم لم يتَّبِعُوا جميعاً السَّبيل المستقيم الذي قال الله فيه { **وأنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِه لَعَلَّكُم تَتَّقونَ** }(2) .

وهكذا جاء مصابنا من عند أنفسنا قبل أن يجيء من الضائقين بنا، والحاقدين علينا ، وحتى نلتقي مع ديننا يكون الفلاح ويتحقَّق وعدُ الله (3).

وهكذا إنْ لم يجمع الناس الحقّ شعبهم الباطلَ ، وإذا لم توحّدهم عبادة الرَّحمن، فرَّقتهم عبادة الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة ، تخاصموا على متاع الدُّنيا، ولذلك كان التطاحُن المُرّ من خصائص الجاهلية، الذي نهىرسولُ الله ﷺ المسلمين عنه (**لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضرب بعضُكُمْ رِقَابَ بعض**) (4).

وما ينبغي أن يكون المسلمون هكذا .. لأنَّ العاقبة آنئذ ستكون خسرى ، وواقع الأُمَّة المسلمة الآن واقع مؤلم ، حيث تداعت عليها الأُمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله . فهل يفيق المسلمين من نومهم ؟؟ .. وهل ينهضون من كبوتهم ؟؟ .. وهل يتَّعظُونَ ممَّا حلَّ بهم ؟؟ .. إنَّ الأمرَ جدّ خطير .. ونتائج التفرُّق والاختلاف ظاهرة لكُلِّ ذي عينين .

---

(1) الحل الإسلامي : ١٦٢
(2) الأنعام : ١٥٣
(3) محمَّد الغزالي : الإسلام في وجه الزَّحف الأحمر ص ١٤٢
(4) رواه الترمذي .

المبحث الثاني

نتائج التفرُّق والاختلاف

من نتائج التفرُّق والاختلاف :

أولاً : الفشل وذهاب ريح الأمـَّة :

أمَّا الفشل فهو الضَّعف مع الجُبْن ، وأمَّا ذهاب الريح فهو ذهاب الغلبة والنصر(١) . وذلك نتيجة الفشل، وكلاهما نتيجة التفرُّق والاختلاف، ولذلك جاء قوله تعالى مُحَذِراً، ناهياً عن التنازع الذي يؤدِّي إلى التفرُّق والاختلاف. وعقَّب على ذلك بالفشل ، وذهاب الريح ، فقال سبحانه

{ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُم } . فأي لون من ألوان تفرُّق الأُمَّة، سواء كان في العقيدة والفكر ، أم الرأي والاتجاه ، أم القيادة والصَّفَ ، كُلَّ ذلك لا يأتي بخير ، إنَّما يؤدِّي إلى الوهن ، والفشل، والضَّعف، والهزيمة .

وهذه حقيقةٌ لا ريب فيها ، يعزِّزها واقع الأُمَّة الإسلامية في مراحل تاريخها .

ولقد رأينا المسلمين في عصر النبوة، وقد تآلفوا وتآخوا وتحابُّوا، وتآزروا وتناصروا واتَّحدوا، فأعزَّ اللهُ بهم الدين ونصرهم ونصر بهم، ومكَّن لهم في الأرض، ورأينا رسولَ الله ﷺ يحرِصُ كُلَّ الحرص على وحدة المسلمين فيأمرهم بالاعتصام بحبل الله، وينهاهم ويحذِّرهم من التنازُعِ والتَّفرُّق، وينهى عن مقدّماته ، فإنَّ كثرة النار من مستصغر الشَّرر .

وهكذا نزل القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى الاعتصام بحبل الله وينهاهم عن التفرُّق والاختلاف ، ويبين عاقبته ، ويمن عليهم بتأليف قلوبهم حتى صاروا إخواناً في الله ، وكيف كانوا في الجاهلية أعداءً متفرِّقين مختلفين

(١) الأصفهاني : المفردات .

متنازعين ، على شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم منها بهدايتهم إلى الإسلام الذي جعلهم إخوة متحابِّين متَّحدين .

ونهض ﷺ فوأد الفتنة في مهدها ، وقبل أن يشتعل أوارها – بعد موقعة بدر وأُحُد – كما أسلفنا – وأنكر على الصحابة العودة إلى دعوى الجاهلية، عن طريق التنازع والاختلاف والتفرُّق، فاستجابوا لله ولرسوله، وأبقوا على ألفتهم، ومحبَّتهم ومودَّتهم ووحدتهم، فكان ذلك أساساً من أُسُس بناء الدولة الإسلامية، وأساساً في الفتوحات التي قاموا بها من أجل نشر الدعوة الإسلامية، وإعلاء كلمة الله ، وقد رأينا ذلك واضحاً في جهادهم مع رسولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ مع خليفتيه أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – حيث دانت جزيرة العرب للإسلام، وقضي على أهل الفتنة ، ثُمَّ انطلقوا يفتحون باسم الله العراق والشام ومصر، وما تبع ذلك حتى استحالت غرباً، فروى الناس وضربوا بعطن، وظلَّ المسلمون على هذا الحال يداً واحدة على مَنْ سواهم، وقلباً واحداً على من عاداهم، حتى أوائل عهد عثمان ﷺ حيث أطلَّت الفتنة برأسها من جديد، وزادها اشتعالاً أولئك الذين دخلوا في الإسلام بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم ، وكانت فتن كقطع الليل المظلم ، وانقسم المسلمون إلى فرق وأحزاب ، فوهنت القوة ودبَّ العنف بسبب النزاع والاختلاف، واستمرَّ الحال على ذلك ، وبدا طمع الأعداء ثانياً في الدولة الإسلامية، حتى إنَّ عبد الملك بن مروان لم يستطع تأمين حدود الدولة الإسلامية من غارات الروم ، الذين قويت شوكتهم ، واضطرَّ أن يهادنهم ، حتى لا يهاجموا ديار الشام.

وحينما استعاد للدولة الإسلامية قوتها، وقضى على الخارجين عليها، أمنت الدولة الإسلامية ، وعادت لها قوتها تحت ظلال توحُّد المسلمين، واستطاع – بتوفيق الله – أن يوجِّه جيوشه لغزو الروم، وتأمين الفتوحات، إلى أن تولَّى الخلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد وطَّد له أبوه الحُكْمَ ، ووحَّد

الدولة بوحدة الأُمَّة مجتمعة، فانطلقت جيوش المسلمين تفتح الدنيا مشرقاً ومغرباً، شمالاً وجنوباً، حتى وصل المد الإسلامي إلى مدينة كاشغر بالصين، وإلى بلاد الأندلس ، وإلى آسيا الصغرى وجنوب وادي النيل .

ثُمَّ دالت الأيام ، وتغيَّرت الأحوال ، وغيَّر المسلمون ما بأنفسهم ، فغيَّر الله حالهم ، فاختلفوا وتفرَّقوا أيدى سبا ، فكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، وقبلها – وفي شتاء ليل حزين – أَفَلَ نجم قرطبة ..

ويدور الزمن دورته، وتتوالى العصور، وإذا الدنيا مقبلة، وإذا الشمس تتوارى، والنور يخبو، ونرى الدولة الإسلامية الموحَّدة تنقسم إلى دويلات، ويقيم الأعداء بينهم الحدود والسُّدود، وينشغل الرعاة بأنفسهم، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فتعدوا عليهم ذئاب الغاب .

وإذا فَرَّقَ الرعاةَ اختـــــلافٌ   علَّمُوا هارب الذئاب التجري

وتسقط بغداد – كما ذكرنا – بسبب التفرُّق والاختلاف . وتضيع الأندلس بسبب النزاع ، ويُسْلَب ذلك الملك العظيم منهم بسبب بُعْد أكثرهم عن منهج الله، وترك العمل بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ .

ويكيد أعداء الإسلام لــه، وتكشف أوربا ومَنْ وراءها عن أحقادها، وتنتهز فرصة الفرقة والنزاع والاختلاف ، فتجرَّد حملاتها الصليبية على العالم الإسلامي للاستيلاء على قلبه "القدس" وتمزيق شمله .

حتى قَيَّضَ الله للمسلمين مَنْ يدعوهم إلى الوحدة ، ويحذِّرهم من الفُرْقَة، ويقودهم إلى الجهاد ضد الصليبيين أعداء الله. وهو صلاح الدين الأيوبي، فتتحرَّر فلسطين والمسجد الأقصى بعد سبعين عاماً من الاحتلال الصليبي، ولا يفتأ أعداء الإسلام عن الكيد والدَّس وبذر بذور الخلاف والشقاق، فيكون من نتيجته الحملات الاستعمارية في العصر الحديث، واحتلال كثير من بلاد المسلمين عسكرياً أو فكرياً ، وكلَّما خمدت نار الفتنة والفرقة أشعلوها مرَّة بعد

أخرى، حتى اكتوى المسلمون – ولا يزالون – بنارها .. وما استيطان إسرائيل لفلسطين وتشريد أهلها ، وتهديد المقدَّسات الإسلامية ، إلاَّ حلقة من حلقات مؤامرات أعداء الإسلام أصحاب النظرية المشئومة (فَرِّق تسُد) .

كُلُّ هذا وذاك يلفت أنظار المسلمين إلى أهمية الوحدة ، وتجنُّب الانقسام والفرقة، ففي الوحدة قوة، وفي التفرُّق ضعف، ولله در مَنْ أوصى أبناءه:

كونوا جميعاً يا بنيَّ إذا اعتـــــرى خطــبٌ ولا تتفرَّقـــــوا آحادا

تأبى العصيّ إذا اجتمعنَ تكسُّراً وإذا افترقنَ تكسَّرَت أعــوادا

إنَّ الشِّقاق والاختلاف والتنازع يضعف الأمم القومية ، ويميت الأمم الضعيفة ، فهل يأخذ المسلمون العبرَ والعِظَات ممَّا فات ، ويتوحَّدون فيما هو آت ؟؟ وإذا فاتك التفاتٌ إلى الماضي ، فقد غاب عنك وجه التأسِّي !!

ثانياً : البغض والكراهية :

ومن مضار التفريق والاختلاف والتنازع ، البُغْض والكراهية، فهما نتيجتان حتميتان، لأنَّ من طبيعة الناس أن يَجْرُوا وراء مصالحهم . وهذه المصالح متضاربة، فإذا لم يكن هناك رباط من وحدة التآلف ، والمحبة ، بين أصحاب المصالح، فإنَّهم يتعادون. وهذا العداء يكون مصحوباً بالتباغض[1].

ولذا فإنَّ الله يلفت نظر المسلمين إلى ما كانوا عليه من عداوة وبغضاء، قبل أن يؤلِّفَ اللهُ بين قلوبهم ، ويشرح صدورهم إلى الإسلام **{ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النَّارِ فأنقذكم منها كذلك يُبَيِّن الله لكم آياته لعلَّكُمْ تهتدون }** .

كما نهى النبيُّ ﷺ عن التباغض ، لِمَا يحدثه من تنافر ، وانتقاص عرى، فقال : **(لا تباغضوا)** [2].

---

(١) القيادة والجندية : ١٢٤
(٢) البخاري ٤٨١/١

وماذا تنتظر من مجتمع أو أمة يشيع بين أفرادها التباغض ؟؟ إنَّها العداوة والتقاطع، والتدابر ، وما هكذا تكون الأُمَّة الإسلامية ..

إنَّها أُمَّة وحدة وألفة ومحبَّة ، ومودَّة ورحمة . ولقد أدرك أعداء الإسلام والمسلمين ، أنَّ تفكيك الوحدة الإسلامية ، وتقطيع أوصال الدولة الإسلامية إلى دولٍ كثيرة، يورث المسلمين التباغض والتدابر والتناحر، وبذا لا يشعرون بشعور بعضهم، ولا يتألَّمون لآلم بعضهم ، فيسهل السيطرة عليهم [1] .

وهذا هو واقع كثير من المسلمين المرير – اليوم – وللأسف الشديد . فكم من شعبٍ مُسْلِمٍ يُضْطَهَد ويُعَذَّب ، وكم من مسلمين يُشردون من ديارهم وأوطانهم، وكم من مسلمين يموتون جوعاً. ولا يألم لألمهم أحد، ولا يتداعى لهم سائر الجسد .

بل إنَّ الأمر لم يقتصر على ذلك، بل دبَّ دبيب البغض والكراهية، وشهوة الاعتداء فيما بين المسلمين، أنفسهم، وحمل بعضهم السلاح على بعض، يضرب كل منهم رقاب أخيه، استجابةً لضغائن وأحقاد ، تثيرها أهواء النفوس، وشهوات الدُّنيا، ناسين قوله تعالى **{ إنَّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلَّكم تُرحمون }**[2]، وناسين قوله ﷺ: **(المؤمن أخ المؤمن)** وقوله ﷺ **(إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار)**[3].

إنَّها الفُرْقة والاختلاف التي لا يحصد منها إلاَّ البُغْض والكراهية .

فهل ينتهي المسلمون عمَّا نهى الله عنه ؟ وهل يأتمرون بما أمر الله به؟

---

(١) تذكرة المسلم ١٦٣

(٢) الحجرات : ١٠

(٣) البخاري : ٨٥/١

ثالثاً : الأثرة وحُبّ الذَّات :

ومن نتائج الفرقة والاختلاف ومضارها، الأثرة وحُبّ الذَّات، والاستبداد، فكُلّ فرقة وطائفة ، وكُل جماعة أو حزب أو وطن، أو دولة – تريد – مع الفرقة أن تستأثر لنفسها ، وأن يكون الخير كله لها ، وأن يكون الشرّ كله لغيرها .

ومن هنا تنشأ الأثرة والأنانية وحُبّ الذَّات . وما هكذا يكون خُلُق المسلمين [(١)] .

لأنَّ المسلم يُحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكرع لأخيه ما يكرهه لنفسه ، والأُمَّة الإسلامية، أُمَّة الخير، والمعروف، والتعاون على البرّ والتَّقوى، لا على الإثم والعدوان، وليحققوا قوله تعالى { **كنتم خير أُمَّة أُخْرِجَت للنَّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** }. ومن الخيرية والإيمان، حب الخير للغير ، وتحقيق الأخوة الإنسانية عن طريق التعارف والتآلف { **يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبير** } .

وذلك ليشعرهم بضرورة الوحدة والتعاون لئلاً يكون بينهم الاستبداد والأثرة [(٢)] .

فهل يأخذ مسلمو اليوم دروساً وعبراً من خير القرون ، ومن السابقين الأوَّلين، حينما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بالحُبّ والودّ ، والإيثار ولذلك مدحهم الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليهم ، وسمَّاهم (**المفلحون**) .

يقول سبحانه { **والذين تبوءوا الدَّار والإيمان من قبلهم يُحبُّون مَنْ هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممَّا أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة ومَنْ يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** }.

(١) القيادة والجندية : ١٢٥
(٢) الوحدة الإسلامية : ٢٨٠

فنعم الخُلُق الإيثار، وبئس الخُلُق الأثرة وحُبّ الذَّات. وبئس صفة الفرقة والاختلاف . فهل مِنْ مُدَّكِر ؟؟

وأين المسلمون من قوله ﷺ (**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر**) ؟؟.

رابعاً : **ضعف الدَّعوة إلى الإسلام** :

إنَّ الأُمَّة الإسلامية هي الأُمَّة المستشهدة على الأُمم ، وهي التي حملت أمانة الدعوة إلى الله ، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد .

{ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً } .

وخيريتها في القيام بتلك الدعوة ، ونشر الإسلام **{ كنتم خير أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله }** ، وأمرهم بتحمُّل تلك المسئولية وأداء الأمانة ليستمر الخير في الأُمَّة ، وتحيا عزيزة كريمة **{ ولتكن منكم أُمَّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون }** .

هكذا فهم المسلمون الأوَّلون مهمَّتهم ورسالتهم ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وانطلقوا يفتحون الدنيا كلها باسم اله ، مشرقاً ومغرباً، شمالاً وجنوباً - كما أسلفنا - وكانوا يداً واحدة، وقلباً واحداً، وأُمَّةً واحدة، فكتب الله تعالى لهم النصر والظَّفر حيث كانوا رجالاً تربّوا في مدرسة النبوة، وكان كُلُّ فرد منهم معجزة جليلة لمحمَّدٍ ﷺ، إيماناً، وعقيدةً وعملاً، وخلقاً، وتربيةً، وتهذيباً، وتزكيةَ نفس، وسُمُوّ سيرة، وكمالاً، واعتدالاً .. لقد صاغهم النبيُّ ﷺ صوغاً، وصبَّهم في قالب الإسلام صبّاً، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلاَّ في الأجسام لا في الميول والنزعات، ولا في الأهواء والرغبات . ولو دقَّق

مُدَقِّق لَما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام والنفسية الإسلامية، ولو تمثَّل الإسلام بشراً ، لَمَا زاد على أن يكون كأحدهم، وكانوا أمثلةً كاملة، وأقيسةً تامَّة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمةً يُصلُّونَ بالناس، وقضاةً يفصلون في قضاياهم، بالعدل والعِلْم، وأمنةً على أموال المسلمسن وخزنتهم، وقوَّاداً يقودون الجيوش، ويحسنون تدبير الحروب، وقائدهم كجنديهم، يحترسون من الذنوب أشد من احتراس العدو، ولا يخشون في الله لومة لائم، لا يقاتلون لمغنم ولا ليرى مكانهم في القتال، وإنَّما يقاتلون نتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفْلى .

وهم أمراء يباشرون إدارة البلاد على هديٍ من كتاب الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، ويقرنون القولَ بالعمل، ويقيمون حدود الله ، والناس أمامهم في الحقِّ سواء . وكنت ترى الواحد منهم في آنٍ واحد زاهداً تقيّاً، وبطلاً مجاهداً، وقاضياً فهماً ، وفقيهاً مجتهداً، وأميراً حازماً، وسياسيّاً محنَّكاً، فالدين والسياسة يتمثَّلان في شخصٍ واحدٍ هو شخص الخليفة، أو أمير المؤمنين، وحوله تلك الجماعة التي تخرَّجت من المدرسة أو المسجد النبوي، أفرغوا في قلبٍ واحدٍ، يحملون روحاً واحدة، وتلقوا تربية واحدة، على منهجٍ واحدٍ مستمَدٍّ من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، فكانوا هداةً مهتدين يستشيرهم الخليفة أو الأمير، ويستعين بهم، فلا يقطع أمراً ذا بال، حتى يشهدوه، فسرت روحهم في المدينة، ونظام الحكم، وحياة الناس، واجتماعهم، وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدينة، وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادَّة، ولا صراع بين الدين والسياسة، ولا فصل بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ، ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات، ولا تنافس في الشهوات ، ولا موالاة لأعداء الله (1).

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . وانظر : العالم الإسلامي للباحث .

ولكن حينما اختلف المسلمون وتفرَّقوا ، ضعفت الدعوة إلى الإسلام تبعاً لضعف المسلمين ، حيث جعلوا الحواجز والسدود فيما بينهم ، فلم يستطيعوا إزالة العقبات التي تعترض سبيلها، لأنَّ يدَ الله مع الجماعة ..

وشر ما ابتلى به المسلمون هو التفرُّق والتنازع والاختلاف، وغذى ذلك أعداء الإسلام، ثُمَّ اتَّهموا المسلمين – بعد ذلك – بالتخلُّف والضَّعف، وحكموا على الإسلام بالمسلمين. والحق والعدل هو الحكم على المسلمين بالإسلام، لأنَّ قوتهم وعِزَّهم ونصرهم في الاستمساك بالإسلام الذي أمرهم بالاعتصام بحبل الله، ونهاهم عن التنازُع والتفرُّق ..

وها نحن نرى في محيط الدعوة الإسلامية جزراً بعد المد. وذلك لأنَّ تفرُّقَ المسلمين شغلهم بأمر أنفسهم ، وانغمسوا في شهوات الحياة الدنيا، وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله ، وأدَّى ذلك إلى الضعف بعد القوة ، والتخلُّف بعد التقدُّم ، فظنَّ غيرهم – كما ألمحنا – إلى أنَّ الإسلام نفسه هو السبب في هذا التأخُّر والضعف ، وبذلك يكون المسلمون – بهذا السلوك – صورة مشوهة للإسلام ، تصد الناس عن حقيقته وقبوله .

وقد أشار إلى ذلك الشيخ أبو زهرة – رحمه الله – حيث قال: " إنَّ الفرقة بين المسلمين هوَّنت أمرهم، وجعلتهم حجة على الإسلام ومبادئه، حتى قال الأعداء: لو كان الإسلام خيراً ما كان أهله على هذه الحال من الخلل والاضطراب ، والبُعْد عن أسباب القوة " (1) .

وقال الشيخ الغزالي – رحمه الله – " إنَّ العوامل التي تمنع الأوربيين من اعتناق الإسلام كثيرة قوية .

ومن المؤسف أنَّ بعض العوامل ترجع إلى المسلمين أنفسهم، فإنَّ الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرَّد رؤيتهم للمسلمين، فإنَّهم

(1) الوحدة الإسلامية : ٣

يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاَّء مستذلّين، فرَّقت بينهم الأهواء والشهوات، وقعدت بهم الصغائر، وانصرفوا عن عظائم الأمور، وأصبحوا مستعبدين مستذلين، ولو كان الإسلامُ قوياً لما كان المسلمون هكذا [١].

فهل يعود المسلمون إلى إسلامهم ؟

وهل يؤدُّون رسالتهم كما أمرهم ربُّهم ؟

ألا إنَّ وعد الله حق **{إنَّ الله لا يُغَيِّر ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم}**[٢]، **{ ولينصرن اللهُ مَنْ ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ * الذين إنْ مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور }** [٣].

---

(١) مع الله : ص ٧٦

(٢) الرعد : ١١

(٣) الحج : ٤٠-٤١

الفصل الثالث

أثر الوحدة الإسلامية
في مواجهة التحديات المعاصرة

١ - قوة الأُمَّة .
٢ - النصر والتمكين .
٣ - إحقاق الحق وإقامة العدل .
٤ - عزة المؤمنين .
٥ - ازدهار الحضارة الإسلامية .



المبحث الأول

قوة الأُمَّة

إنَّ إئتلاف القلوب والمشاعر، واتحاد الغايات والأهداف والمناهج، من أوضح تعاليم الإسلام، وألزم خلال المسلمين المخلصين، ولا ريب أنَّ توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأُمَّة، ودوام دولتها، ونجاح رسالتها، ولئن كانت كلمة التوحيد باب الإسلام، فإنَّ توحيد الكلمة سر البقاء فيه، والإبقاء عليه، والضمان الأوَّل للقاء الله بوجهٍ مشرقٍ وصفحةٍ نقيةٍ.

إنَّ العمل الواحد في حقيقته وصورته، يختلف أجره اختلافاً كبيراً، حين يؤديه الإنسان وحيداً ، وحين يؤديه مع آخرين ..

إنَّ ركعتي الفجر، أو ركعات الظهر هي هي، لم تزد شيئاً عندما يؤثر المرء أداءها في جماعة عن أدائها في عزلة. ومع ذلك فقد ضعَّف الإسلام أجرها بضعاً وعشرين درجة أو يزيد ، عندما يقف الإنسان مع غيره بين يدي الله . من هنا ندرك أهمية الوحدة ، وأثرها في قوة الأُمَّة .

إنَّ الاتحاد قوة، وليس ذلك في شئون الناس فقط، إنَّه قانون من قوانين الله في الكون، فالخيط الواهي إذا انضم إليه مثله أضحى حبلاً متيناً يجر الأثقال، وهذا العالم الكبير ما هو إلاَّ ذرَّات متحدة .

وقد شرح حكيم لأبنائه هذا المعنى عند وفاته لتلقينهم درساً في الاتحاد حيث قدَّم إليهم حزمةً من العصي قد اجتمعت عيدانها ، فعجزوا عن كسرها فلمَّا انفكَّ رباطها وتفرَّقت الأعواد كُسِّرَت واحداً واحداً ، فأنشد قوله :

كونوا جميعــاً يا بني إذا اعترى   خطبٌ ولا تتفرَّقـــوا آحاداً

تأبى العصـــيّ إذا اجتمعــن تكسُّراً   وإذا افترقن تكسَّــرت أعوادا

إنَّ الهجــوم الصليبي المعاصر، والهجوم الصهيوني الذي جاء في أذياله، لم يــنجحا في ضعضعة الدولة الإسلامية وانتهاب خيراتها إلاَّ عقب تمهيده لذلك

بتقسـيم المسلمين شيعاً منحلة واهية، ودويلات متناحرة متدابرة ، يثور بينها النزاع، وتتسع شقته لغير سبب .

إنَّ الإسلام حريصٌ على سلامة أُمَّته، وحفظ كيانها، وهو لذلك يطفئ بقوة بوادر الخلاف، ويهيب بالأفراد كافَّة أن يتكاتفوا على إخراج الأُمَّة من ورطات الشقاق ومصايرة السوء، فإنَّ يد الله مع الجماعة، ومَنْ شَذَّ شَذَّ في النار .

وأعداء الإسلام يودون أن يضعوا أيديهم على شخصٍ واحدٍ ليكون ناتئاً يستمكنون منه، ويجذبون الأُمَّة كلها عن طريقه، فلا جرم أنَّه يُسْتَأْصَل هذا النتوء لينجي الجماعة كلها من أخطار بقائه[1] .

ولذا يقول رسول الله ﷺ **(ستكون هنَّاتٌ وهنَّات، مَنْ أراد أن يفرِّق أمر هذه الأُمَّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً مَنْ كان)**[2] .

وكان رسولُ الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة، وكان في حِلِّه وترحاله يوصي بالتجمُّع والاتحاد . عن سعيد بن المسيب قال: قال رسولُ الله ﷺ **(الشيطان يهم بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم)**[3] .

إنَّ الأُمَّة حينما تجتمع على هدفٍ واحدٍ ، وتسير صفّاً واحداً ، يكون في اجتماعها واتحادها العزَّة والمنعة .

لأنَّ الشقاق يضعف الأمم القوية ، ويميت الأمم الضعيفة، ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين بعدما انتصروا في معركة (بدر) أن يوحِّدوا صفوفهم ويجمعوا أمرهم، وحينما تطلَّعت النفوس للغنائم، تشتهي حظها وتتنافس على

---

(١) خلق المسلم : الغزالي ١٩١ - ١٩٢
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه مالك .

اقتسامها، نزل قوله تعالى { **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** } (١) .

ثُمَّ أفهمهم أنَّ الاتحاد في العمل لله هو طريق النصر المحقَّق ، والقوة المرهوبة {**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** } (٢).

وحذَّرهم من أن يسلكوا في التكالب على الدنيا ، والحرص على غنائها مسلك الذين لا يرجون عند الله ثواباً ، فقال : { **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله** } (٣) .

ثُمَّ تلقَّى المسلمون في (أُحُد) درساً قاسياً كشف لهم عاقبة الانقسام وعصيان أمر الله ورسوله ، حينما استشهد سبعون من المسلمين ، ودارت الدائرة عليهم ، فمسَّهم القرح ، يقول سبحانه { **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم مَنْ يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة ثُمَّ صرفكم عنهم ليبتليكم** } (٤) .

ولو عقل المسلمون أحوالهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم، لأحسوا بأنَّ ما لحقهم من عار ، وأصابهم من هزيمة ، يعود إلى انحلال عراهم وتفرق هواهم، أمَّا إذا اتحدوا فإنَّ دولتهم تكون قوية مهيبة الجانب، ولا يطمع الأعداء في اقتطاع جزءٍ منها.

وحينما تتفرَّق الدولة إلى دويلات، وتتعدَّد أهدافها، يسهل على الأعداء إضعاف قوتها، والاستيلاء على ما يريدون منها. هذا هو على مستوى الأمة، وكذلك هو على مستوى الأفراد .

---

(١) الأنفال : ١
(٢) الأنفال : ٤٦
(٣) الأنفال : ٤٧
(٤) آل عمران : ١٥٢

وإن كان فيهم بعض الضعفاء – لهم من القوة والهيبة ما ليس للأفراد – وإن كانوا أقوياء – وفي هذا المعنى يقول ﷺ (**إنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً – وشبَّك بين أصابعه**) (١) .

فالبناء يكون من مجموعة من المواد المتناثرة التي يسهل على اللصوص اختطاف شيء منها ، ولكن حينما تجتمع هذه المواد ، وتدخلها يد الفن والتعمير يصبح قصراً شاهقاً يصعب اقتطاع جزء منه ، ويصبح له كيان يدهش الناظر ويعجب المتأمل .

وحينما كانت الأُمَّةُ الإسلاميةُ دولة واحدة لم يكن الأعداء يقدمون على الاستيلاء على أراضيها بالرغم من ضعف دولة الإسلام – آنذاك – وحينما استطاع الأعداء أن يقضوا على الخلافة الإسلامية، هان عليهم الاستيلاء على أجزاء كثيرة من بلاد الإسلام.

ولقد وقف الأعداء حائرين زمناً طويلاً أمام وحدة هذه الأُمَّة ، فلم يستطيعوا أن يقتطعوا منها شيئاً ، لأنَّ هيبة الدولة الإسلامية ، واجتماع الكلمة كانت تقف سدّاً منيعاً أمام كل محاولاتهم ، بالرغم ممَّا كان يعتري وحدة الأُمَّة الإسلامية من التصدُّع والضعف ، ولكن اجتماع الكلمة مهما كانت نسبته من القوة والتماسك خيرٌ من الفرقة والخلاف (٢) .

إنَّ الأُمَّة الإسلامية إذا اتحدت، عزَّت وسادت، وبنت وشادت، وبرزت قوتها – في مجالات شتى – منها: القوة الروحية، والقوة العسكرية والقوة الاقتصادية، والقوة السياسية.

أمَّا القوة الروحية، فإنَّ المسلمين المؤلفين لهذه الوحدة يعتقدون أنَّ وحدتهم تنفيذ لأمر الله عزَّ وجلَّ "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا"(٣).

---

(١) أخرجه الشيخان .
(٢) د . عبد العزيز الحميدي ، من بحث مقدَّم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدعوة ، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٣ هـ .
(٣) آل عمران : ١٠٣

ومن ثَمَّ فإنَّ المحافظة عليها قربة يتقرَّب بها المسلمون إلى الله ، كما أنَّ الخروج عليها معصية لله عزَّ وجلَّ، زد على ذلك أنَّ المنتمـين لهذه الوحدة المباركة يدينون بعقيدةٍ واحدة ، عقيدة الإيمان بالله الواحد ، النافع الضار ، الذي بيده الأمر والنصر **{ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم }** (1) .

وبهذا تؤلف هذه الوحدة قوة روحية هائلة لا ترهب إلاَّ من الله، ولا تخشى إلاَّ الله (2) .

وأمَّا القوة العسكرية : فقد أمر الله المؤمنين الموحدين المتحدين أن يأخذوا الأهبة ، ويعدوا العدة لإرهاب أعداء الله وأعدائهم **{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون }** (3).

ويتطلب أخذ القوة أن يكون هناك القائد المحنَّك الشجاع الذي يبذل نفسه في سبيل الله ، إعلاءً لكلمته وتمكيناً لنشر دينه ، وبهذه القوة يصان الحمى ، ويذاد عن العرض والشرف ، ولا يفكر أعداء الله في استباحة ديار المسلمين وأموالهم ، لأنَّهم يد على مَن سواهم والله قد وعدهم بنصره إنْ هُم نصروه **{ ولينصرن الله مَن ينصره إنَّ الله لقويٌّ عزيز * الذين إنْ مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور }** (4) .

إنَّهم يستجيبون لأمر الله عزَّ وجلَّ ، يحبون الشهادة أحب من الحياة ، لأنَّ الموت في سبيل الله أغلى أمانيهم ، وأسمى غاياتهم ، وهم في ذلك يصدرون عن إيمانٍ صادقٍ وطاعةٍ لله ولرسوله ﷺ ولأميرهم الذي يقودهم –

---

(1) آل عمران : ١٢٦
(2) مع الله ٢٨٤
(3) الأنفال : ٦٠
(4) الحج : ٤٠ - ٤٢١

بتوفيق الله – إلى النصر والظَّفر، حيث يؤمنون بأنَّ طاعة القائد طاعة لله عزَّ وجلَّ ، مصداقاً للحديث الشريف **(مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومَنْ يعص الأمير فقد عصاني)**[1].

إنَّ المسلمين – في عصور التشرذم والتفرق – قد ذلوا واستكانوا، وهانوا على غيرهم، فاستبيحت ديارهم ومقدساتهم وأموالهم وأعراضهم، واحتلت بلادهم، حينما رضوا بالقعود واثَّاقلوا إلى الأرض، وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله، وتركوا لأعدائهم الأخذ بأسباب القوة العسكرية حتى عاثوا في الأرض فساداً، وأهلكوا الحرثَ والنَّسل .

ونسي المسلمون أمر الله لهم بإعداد القوة ، والمرابطة في سبيل الله ، لإحقاق الحق ، وإقامة العدل ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد ، ومِنْ جَوْر الحُكَّام إلى عدل الإسلام .

ونسي المسلمون أنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، وما تركه قوم إلاَّ ضربهم الله بالذلِّ ، وأنَّ القتالَ في الإسلام قد شُرِعَ للدفاع أولاً عن حرية المسلمين الذين أوذوا فعلاً بسبب عقيدتهم، وأُخْرِجُوا من ديارهم بغير ما سبب إلاَّ أن يقولوا ربنا الله وفي هذا يقول تعالى **{أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ الله على نصرهم لقدير * الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلاَّ أن يقولوا ربنا الله}** [2] .

ومع أنَّ هذا النَّصّ يكشف عن السبب المباشر في الإذن للمسلمين بالقتال، فإنَّ بقيته يبيِّن حكماً عامّاً في مشروعية القتال، وغاية الله من نصر من ينصرهم فيه، وذلك هو ضمان حرية العقيدة عامَّةً للمسلمين وغير المسلمين، وتحقيق الخير في الأرض والصلاح، فهو سبحانه يقرر أنَّه لولا مقاومة بعض الناس وهم المؤمنون، لبعض الناس وهم الظالمون، لهُدِّمت

---

(١) مسلم ٢٢٣/١٢

(٢) الحج : ٣٩ ـ ٤٠

صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ثُمَّ وعد بالنصر الذي يؤدي إلى تمكين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر العابدين لله، الباذلين أموالهم للعفاة .

ومع الإذن للمسلمين بالقتال لتحقيق هذا الفرض، فإنَّهم أُمِرُوا ألا يعتدوا، وحددت لهم الأحوال التي يجب فيها القتال لتحقيق ذلك الغرض، والتي لا يجوز فيها ، فهم مكلَّفون أن يقاتلوا من يقاتلهم ، ومن يفتنون فريقاً منهم عن دينهم – والفتنةُ أشد من القتل – لأنَّها اعتداء على أخصِّ خصائص الإنسان، وهي حرية الوجدان، وهم منهيون عن الاعتداء، وعن قتال أعدائهم في الأمكنة والأزمنة التي يحرم فيها القتال إذا بدأوهم بالقتال .

{ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ... } إلى قوله **{ واتقوا الله واعلموا أنَّ الله مع المتقين }** (١) .

وهنا نجد كذلك أنَّ الغاية من هذه الحروب هي دفع العدوان بدون اعتداء، ودفع الفتنة عن الدين، وترك الدين لله، والقاعدة العامَّة هي أن لا حرب إلاَّ مع المحاربين ، ومع الطغاة الذي يصدون الناس عن دينهم ظالمين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين .

وهناك فريقٌ آخر ، يدعو الإسلام إلى حربهم حرباً وقائية ، أولئك الذين ينقضون معاهداتهم السلمية مع المسلمين ، ويكررون هذا النقض ، بحيث يبقى المسلمون في قلقٍ من حياتهم في كُلِّ لحظة . فعلى المسلمين أن يعلنوهم بنبذ ما بينهم وبينهم من معاهدات ، ولكن حتى هؤلاء ليس للمسلمين عليهم من سبيل أذا هم آثروا السلم وجنحوا إليها واختاروها .

{ إنَّ شرَّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثُمَّ ينقضون عهدهم في كُلِّ مَرَّةٍ وهم لا يتَّقون * فإمَّا تثقفنَّهم في الحرب فشرِّد بهم من خلفهم لعلَّهم يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تخافَنَّ مِنْ قومٍ خيانةً فانبذ إليهم

---

(١) البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٤

على سواءٍ إنَّ الله لا يُحِبّ الخائنين * ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أنَّهم لا يعجزون * وأعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قُوَّةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكَّل على الله إنَّه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإنَّ حسبك الله هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكِنَّ الله ألَّف بينهم إنَّه عزيزٌ حكيمٌ}[1] .

ترى ! هل ينتصر المسلمون على أعدائهم بغير تأييدٍ من الله وتنفيذ أمره بإعداد العدّة والقوة ؟ وهل تتحقَّق القوة بغير ألفة بين المؤمنين ؟

ولذا لفت الله أنظار المؤمنين في سياق تلك الآيات الكريمات إلى أهمية الألفة بين القلوب **{ وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكِنَّ الله ألَّف بينهم إنَّه عزيزٌ حكيمٌ }** .

ويجب أن يكون معلوماً أنَّ الإسلام حيثما أراد بأعداد القوة والجهاد في سبيله ، إنَّما هدف من ذلك رد العدوان ، ودفع الظلم والطغيان ، لا للإكراه على العقيدة ، ولا كراهية للآخرين بسبب العقيدة ، إنَّما هي الوسيلة العملية لدفع الظلم وإقامة العدل ، وتحقيق الأمن ، وحماية الضعفاء .

القوة الاقتصادية والسياسية :

ويجدر بنا قبل أن نتحدَّث عن القوة الاقتصادية والسياسية أن نلفت النظر إلى ماهية العالم الإسلامي ، وأهميته في المعمورة ، ليتبوأوا مكانهم، ويعرفوا مكانتهم .

---

(١) الأنفال : ٥٥ ـ ٦٢

ماهية العالم الإسلامي :

يطلق العالم الإسلامي المعاصر، ويراد به البقاع التي تقطنها جماعات تزيد نسبة المسلمين بينها على ٥٠%، وهذا اعتبار سياسي محض، لا يستند إلى فكرةٍ حقيقية، ولا يقوم على معنى صحيح، لأنَّ العالم الإسلامي عالمُ فكر لا عالمُ حدود، كذلك فإنَّ أعداء الإسلام قد اغتصبوا كثيراً من ديار المسلمين، وشرَّدوا أهلها بغياً وقتلاً، حتى أخذ عددهم يتناقص عاماً بعد عام، حتى صاروا غرباء في أوطانهم، أقلية في ديارهم.

والحق أنَّ العالم الإسلامي هو كُلّ أرض دخلها الإسلام فاتحاً، وصار له فيها السيادة والريادة ، وإن تغيَّرت معالمها، ومحيت آثارها ورسومها، وهو يمتد ويتَّسِع إذا قيَّض الله له مَنْ يقوم بنشر دعوته والجهاد في سبيله، والمسلم أينما كان هو مواطنٌ في هذه الرقعة من العالم، جنسيته عقيدته، له ما لساكن هذه البقعة ، والأرض في نظره قسمان:

قسم هو دار الإسلام، وهي داره، ولو كان خارجاً عنها، بعيداً منها. وقسمٌ وهو دار الكفر وهو ليس منها، ولو كان مقيماً في ربوعها، وله معايش بين أبنائها ، لأنَّ تطبيق النظام الإسلامي هو أساس هذا التقسيم، والنظرة إلى المجتمع حسب هذا التقويم .

موقع العالم الإسلامي :

ويمتد العالم الإسلامي من المحيط الهادي شرقاً ، إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن خط طول ٢٠ غرباً إلى خط طول ١٤٠ شرقاً ، أي على مسافة تساوي١٨٠٠ كم . وهذا الامتداد يتجاوز درجة العرض ٥٠ شمالاً .

ويقع معظم العالم الإسلامي في قارة آسيا ، حيث يشغل أكثرها ، كما يشغل ثلثي مساحة أفريقيا .

أمَّا العالم الجديد فقد هاجرت إليه جماعات من المسلمين بدوافع عدَّة ، ونسبتهم ضئيلة في هذا المجتمع ، وكذلك في غرب أوروبا وشمالها ، أمَّا

المناطق الشرقية من أوربا ففيها بعض التجمعات في يوجوسلافيا وبلغاريا وغيرها .

وتبلغ مساحة العالم الإسلامي ما يقرب من ربع مساحة اليابسة ، إذ يشغل ما يزيد على أربعين مليون كيلو متراً مربعاً .

كما يضم مجموعة من البشر تزيد على سدس سكان العالم وتفوق أكثر كتلة بشرية أخرى تزيد على ١٢ر٠٠٠ مليون نسمة ، بالإضافة إلى إخوانهم الذين يعيشون كأقليات في دول أخرى .

والمسلمون أُمَّة واحدة أينما كانت أرضهم ، ومهما نأت ديارهم، لأنَّهم – كما ذكرنا – تجمعهم عقيدة واحدة ، والبقاع التي تزيد نسبتهم فيها على ٥٠% هي ما يطلق عليه اليوم العالم الإسلامي .

أهميتـــــه :

والعالم الإسلامي له أهمية عظمى على هذه المعمورة ، إذ يقع في مركز الاتصال بين القارات الثلاث – آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا – ويشرف على أهمِّ البحار والمحيطات ، فهو يطل على المحيط الهادي شرقاً ، والمحيط الهندي جنوباً وعلى البحر الأحمر والبحر الأبيض شمالاً ، وعلى المحيط الأطلسي غرباً . كما تجري على أرضه أشهر الأنهار ، كما يتمتَّع بطرق ملاحية تكسبه أهمية تجارية وسياسية وعسكرية ، كما يملك أهم المضائق كمضيق جبل طارق، ومضيق باب المندب، والبوسفور، والدردنيل، وملقا، بالإضافة إلى قناة السويس، ويتنوع مناخه تبعاً لتنوع بيئاته، واتساع رقعته، ففيه المناخ الاستوائي وأمطاره غزيرة، وتسود المناطق القريبة من خط الاستواء، والمناخ السوداني، ويمتد شمال المناخ الاستوائي ، ويمتاز بأمطار صيفية، بينما يبقى الشتاء جافّاً، والمناخ الصحراوي، ويمتد بين خطي العرض ١٨ – ٣٠، ومناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يمتاز بأمطاره الشتوية مع اعتدال حرارته في الصيف. وبسبب هذه الأنواع المتعدِّدة في

المناخ، وتنوع التضاريس تنوَّعت المزروعات، وكثرت المراعي، وحوت الأرض في جوفها كثيراً من الكنوز، فهو غني بموارد الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية الكثيرة، حيث يشتمل على أكثر من ٤٠٠ مليون فدَّان مزروعة ، تُشَكِّل ١١% من مساحة الأرض المزروعة في العالم ، عدا المساحات الشاسعة من أراضٍ صالحة للزراعة والتي لم تُستَصلَح بعد .

كما تُرَبَّى على أرض العالم الإسلامي ملايين من الماشية، وإن كانت ضئيلة بالنسبة إلى عدد القطيع العالمي، ففيه حوالي ١٠% من البقر، ٢٤% من الغنم ، ٣٧% من الماعز، ٧٦% من الإبل. أمَّا الأسماك ففيه ٦% من الصيد العالمي ، وهو قليل بالنسبة إلى المسلمين وموقعهم الممتاز ..

كما يملك العالم الإسلامي ٧٥% من احتياطي النفط، وأكثر من ٣٥% من احتياطي الغاز الطبيعي ، وأمَّا المعادن فهي بحمد الله كثيرة ، ولكنها تحتاج إلى مَنْ يكشف عنها ، تحميه القوى الإسلامية من شر الدول الصناعية الكبرى [1] .

عرضنا في الصفحات السابقة مفهوم العالم الإسلامي ، وموقعه وأهميته لكي نرتب على ذلك نتائج هامَّة ، وهي أنَّ المسلمين حينما يكونون أُمَّةً واحدة من أندونيسيا شرقاً ، إلى المغرب الأقصى ومن جبال أورال شمالاً ، إلى جنوب أفريقيا ، فإنَّهم يستطيعون – بتوفيق الله لهم – أن يكونوا أعظم سوق اقتصادية إسلامية مشتركة لدى جميع المسلمين ، ولكُلٍّ حق التجارة والتشغيل والعمل ، وذلك بفضل ما حبا الله بلاد المسلمين – كما أسلفنا – من موقع وأهمية .

وليس المسلمون أقل شأناً من غيرهم ، كدول أوربا ، التي أجمعت شعوبها – رغم اختلافهم في أمورٍ كثيرة – ورغم قِلَّة الموارد الطبيعية بالنسبة للعالم الإسلامي ، ومع ذلك أنشأوا السوق الأوربية المشتركة .

---

(١) العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر : ٦٧ - ٧١

ونحن المسلمين أحوج ما نكون إلى إنشاء السوق الإسلامية المشتركة، ولن تكون القوة الاقتصادية إلاَّ إذا توحَّد المسلمون ، وتبعاً لقوة المسلمين الروحية والعسكرية والاقتصادية في ظلِّ وحدتهم تكون دولتهم أقوى وأعزّ دول الأرض سياسةً، وتستطيع حينئذٍ أن تحقِّق خيريتها ووسطيتها ، ولتكون شهيدةً على الأُمم .

وعندما يكون المسلمون موحِّدين تتحد مشاعرهم لاتحادهم في الهدف والغاية والاتجاه والقيادة والنظام ، فيتراحمون ويتعاونون على البرِّ والتقوى، ويصبحون كالجسد الواحد ، يتألَّمون لآلام بعضهم ، ويشق على أحدهم ما يشق على غيره ، لأنَّهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وفي هذا قوة عظيمة لهم ، ولقد خشي أعداء الإسلام من قوة المسلمين إذا اتَّحدوا وحذَّروا دولهم من ذلك وصرَّحوا به جهاراً [1] .

فهل يعتصم المسلمون بحبل الله ؟

إذن تتحقَّق آمالهم وأمانيهم .. ويعيشون أعِزَّة كرماء .. ففي الوحدة قوتهم ، وفيها عزهم ومجدهم .

---

(١) التبشير والاستعمار : ٣٦ - ٣٧

المبحث الثاني

النصر والتمكين

يقول سبحانه **{ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً }** (١) .

ومن الإيمان والعمل الصالح الاعتصام بحبل الله ، والعمل على نشر الدين والتمكين له في الأرض لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ..

وإنَّ الجماعة المؤمنة حينما تكون صفّاً واحداً متماسكاً متعاوناً على البرِّ والتقوى ، تستطيع مواجهة أعدائها ، وهي كتلة واحدة وبذلك يتحقق وعد الله بالنصر كما قال تعالى **{ وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلونكم كافَّة واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين }** (٢) .

ذلك أنَّه مهما كانت قلة العدد والعُدَّة في مقابلة الأعداء إلاَّ أنَّ قوة الإيمان واجتماع الكلمة تجعل من القلة كثرة ومن الضعف قوة، ويؤلِّف به الله بين المؤمنين ، ولا شك أنَّ تأليف الله المؤمنين هو سمة الجماعة المؤمنة ، أمَّا الذي يؤلِّف بين الجماعات الأخرى فهم البشر أنفسهم ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يوضع تشريع الله جلَّ وعلا في المقارنة مع تشريع البشر ، بل إنَّ مجرَّد التفكير في ذلك يعتبر انحطاطاً في التفكير وانقلاباً في المفاهيم، ورسولُ الله ﷺ – وهو أفضل البشر وأقدرهم على جمع الكلمة – ما كان باستطاعته – لولا الوحي الإلهي الذي تنزّل عليه – أن يؤلِّف بين قلوب

---

(١) النور : ٥٥

(٢) التوبة : ٣٦

البشر، يقول تعالى { **هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنَّه عزيزٌ حكيم** }[1].

أضف إلى ذلك أنَّ الهدف الذي من أجله جمع الله المؤمنين ، وشرع لهم الجهاد في سبيله هو ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ والسعادة في الدار الآخرة، بِحَثٍّ المؤمنين على التضحية والبذل والفداء بالنفس والنفيس لإعلان كلمة الله، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد .

{ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومَنْ أوفى بعهدم من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** } [2] .

والجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، والتضحية هي الطريق الصحيح لبلوغ الهدف ، وكلَّما بالغ المؤمن في بذل ماله ونفسه في سبيل الله ، كان أسرع إلى بلوغ هذا الهدف السامي { **وذلك هو الفوز العظيم** } .

أمَّا الجماعات الأخرى فإنَّ مقاصدها قريبة ، وأهدافها مقصورة على الحياة الدنيا ، والسبيل الأمثل للوصول إلى هذه الأهداف هو استبقاء الحياة أطول فترة ممكنة ، حتى يتمتَّع الإنسان بثمرات انتصاره ، وبالتالي يقع الفشل والتراجع أمام إقدام الجماعة المؤمنة على بذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وبينما نجد الجماعات الدنيوية تتنافس على الوصول إلى هذه الأهداف التي تفرض عليها الإحجام والتردُّد ، وتفرّق الكلمة ، فإنَّنا نجد الجماعة المسلمة تتنافس في الوصول إلى هدف يفرض عليها الإقدام واجتماع الكلمة، وينشد أحدهم :

---

(١) الأنفال : ٦٣

(٢) التوبة : ١١١

تأخَّرْتُ أستبقي الحياة فلم أجــد   لنفسي مكاناً غيرَ أن أتقدَّما

ويقول الآخر :

ولستُ أُبَالي حين أُقْتَل مسلمـــــــــــــــاً

على أيِّ جنبٍ كانَ في اللهِ مصرعي

وذلك في ذاتِ الإله وإنْ يشــــــــــــــأ

يبارِك على أوصالِ شلو ممــــــــــزَّعِ

ومن هنا نعلم أنَّ أعداء المؤمنين مهما كثروا وقويت عدتهم، فهم ضعفاء لدناءة مقاصدهم وتفرُّق كلمتهم، وصدق الله العظيم { **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً** } [١] . { **يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنَّهم قومٌ لا يفقهون** } [٢] .

ثُمَّ إنَّ الأعداء وإن أظهروا الاجتماع على حرب المسلمين ، إلاَّ أنَّهم في واقعهم متفرقون ، كما قال تعالى { **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى ذلك بأنَّهم قومٌ لا يعقلون** }[٣].

ولأنَّهم يحادُّون الله ورسوله { **إنَّ الذين يحادُّون الله ورسوله أولئك في الأذَلِّين** } [٤] .

أمَّا المؤمنون فهم يحبون الله ورسوله وهو يحبهم ، يقول تعالى { **إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صَفّاً كأنَّهم بنيانٌ مرصوصٌ** } [٥] .

---

(١) النساء : ١٧٦
(٢) الأنفال : ٦٥
(٣) الحشر : ١٤
(٤) المجادلة : ٢٠
(٥) الصف : ٤

وفي هذه الآية الكريمة أقوى رادع للمؤمنين عن التفرُّق واختلاف الكلمة، لأنَّهم حينما يتفرَّقون لا يظفرون بحب الله جلَّ وعلا ، والمحروم من الخير والنصر والظَّفَر مَنْ حُرِمَ من محبة الله سبحانه وتعالى [1] .

وإنَّ شرَّ ما ينتجه تفرُّق المسلمين وتفكك وحدتهم هو ضعف الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وانحسار المد الإسلامي وتقلُّص نشره، ذلك أنَّ العمل الأساسي للمسلمين بعد العمل بالإسلام هو نشره، ودعوة الأمم الأخرى إليه **{ولتكن منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}**[2] ، **{ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين }** [3] . ويقول سبحانه : **{ وإنَّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسْألون }** [4] ، ويقول تعالى :

{ وكذلك جعلناكم أمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً } [5] .

فإذا لم يقم المسلمون بواجب التبليغ والدعوة إلى الإسلام والتمكين لدينه في الأرض ، عرَّضوا أنفسهم للسؤال والعقاب .

وإنَّ نشر الدعوة الإسلامية وتبليغها لسائر الناس والتمكين لهذا الدين يحتاج إلى قوة عظيمة ، أحياناً لإزالة الحواجز المادية التي تعترض طريق الدعوة، وتحطم الطواغيت التي تريد أن تصد الناس عن دين الله ، ولا تحب الخير والهداية ، وإنَّما تريد أن يبقى الناس عبيداً لها .

ومع الفرقة لا يمكن أن توجد هذه القوة الجبارة التي تقضي على كل حجر عثرة أمام تبليغ دين الله والدعوة لاتباع هديه ، ولذا يقول سبحانه آمراً المسلمين بإعداد القوة لإرهاب أعداء الله **{ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّةٍ**

---

(١) عبد العزيز الحميدي : ١٨ - ١٩
(٢) آل عمران : ١٠٤
(٣) يوسف : ١٠٨
(٤) الزخرف : ٤٤
(٥) البقرة : ١٤٣

ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيءٍ يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون}[1].

وهكذا يكون من أثر الوحدة تحقيق النصر - بإذن الله - والتمكين لدينه في الأرض: **{ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون}**[2] **{ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين}**[3] .

ومن ثمرات الإيمان وحدة المسلمين . وقد رأينا في تاريخ المسلمين صفحات مشرقات بالنصر والتمكين حينما تألَّفت القلوب وتوحَّدت المشاعر واعتصم المسلمون بحبل الله .

---

(١) الأنفال : ٦٠
(٢) المنافقون : ٧
(٣) آل عمران : ١٣٩

المبحث الثالث

إحقاق الحق وإقامة العدل

إنَّ وحدة الأقطار الإسلامية في دولة واحدة هو السلاح الوحيد للمسلمين ليشكلوا قوة ذات وزن دولي يستطيعون بها أن يحرِّروا إخوانهم المستعبدين من قبل القوى العالمية الضخمة ، شرقية كانت أو غربية، لكي يتحقق في ظلال تلك الوحدة إحقاق الحق وإقامة العدل. وقد سمَّى الله نفسه بالحق فقال سبحانه { **فتعالى الله الملك الحق** }(١) ، وقال: { **هنالك الولاية لله الحق**}(٢).

ووصف ما جاءنا منه سبحانه بالحق فوصف القرآن الكريم بذلك: {**أفمن يعلم أنَّما أنزل إليك من ربك الحق** }(٣)، { **وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنَّه الحق من ربنا** } (٤) .

وبيَّن سبحانه أنَّ خلق السموات والأرض إنَّما تَمَّ بالحق { **خَلَقَ السموات والأرض بالحق إنَّ في ذلك لآية للمؤمنين** }(٥) .

ولن يكون هناك أحقاق للحق ، وإقامة للعدل ، إلاَّ إذا نهض المسلمون واتحدوا بعد فرقة ، وحملوا لواء دعوة الحق إلى الناس كافَّة ، وعرفوا مهمتهم وغايتهم في الحياة .

وإنَّ المهمة الأساسية للأمة الإسلامية هي العمل بالإسلام والقيام بنشره بين الناس كافَّة لإخراجهم من الظلمات إلى النور { **كتابٌ أنزلناه إليك تخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراطِ العزيزِ الحميد**}(٦).

---

(١) طه : ١١٤
(٢) الكهف : ٤٤
(٣) الرعد : ١٩
(٤) القصص : ٥٣
(٥) العنكبوت : ٤٤
(٦) إبراهيم : ١

وكما أنَّ الناس لا يستغنون عن رزق الله لأجسادهم، فإنَّهم لا يستغنون عن هدي الله لأرواحهم[1] { **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** }[2]، {**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** } [3] .

ولذا فإنَّ الله عزَّ وجلَّ بعثَ محمَّداً ﷺ إلى سائر الناس، يقول الحق تبارك وتعالى { **وما أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالمين** }[4]، ويقول {**وما أرسلناك إلاَّ كافَّةً للناس بشيراً ونذيراً**}[5]، ويقول { **ليُنْذِر مَن كان حياً ويحق الحقّ على الكافرين** }[6].

وقد قام ﷺ بواجب التبليغ خير قيام – جزاه الله عنَّا كُلَّ خير – فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلاَّ وقد انتشر نور الإسلام في جزيرة العرب، وضربت أكباد الإبل إليه في المدينة عام الوفود ، كما وضع أقدام المسلمين على الفتوحات بأمره بإنفاذ بَعْث أُسامة بن زيد رضي الله عنه ، وكذلك بمكاتباته التي أربت على مائة كتاب إلى رؤساء العشائر والقبائل وملوك العالم آنئذ، يدعوهم جميعاً إلى الإسلام ، فمنهم مَنْ هَدَى الله ومنهم مَنْ حَقَّت عليه الضلالة [7] .

ولم يكن ذلك إلاَّ بعد أن أقام ﷺ أسُسَ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة على الإخاء الصادق الذي كان من معالمه البارزة الإيثار والمحبة والتعاون على البرِّ والتقوى والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإعزاز دينه

---

(١) مع الله : ٢٢
(٢) الأنفال : ٢٤
(٣) الشورى : ٥٢-٥٣
(٤) الأنبياء : ١٠٧
(٥) سبأ : ٢٨
(٦) يس : ٧٠
(٧) صلح الحديبية وأثره في نشر الدعوة الإسلامية ، للباحث .

وإحقاق الحق **{ ويريد الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطل ولو كره المجرمون }** [1] .

وسار الخلفاء الراشدون – رضي الله عنهم – على نفس المنهج حتى فُتِحَت العراق، والشام، ومصر، ثُمَّ انساح المسلمون إلى أواسط آسيا وأفريقيا، وواصل المسلمون بعد ذلك الفتوحات حتى بلغوا شاطئ المحيط الأطلسي غرباً، وإلى البرانس على حدود فرنسا شمالاً .. وإلى مدينة كاشغر بالصين شرقاً ، ودقوا أبواب القسطنطينية شمالاً ..

وعصر الوليد بن عبد الملك خير شاهد على ذلك ، وما كان هذا المد الإسلامي إلاَّ في ظلال وحدة المسلمين وقوتهم .

وإذا كان دور الأُمَّة الإسلامية بين الأمم هو دور الأستاذية لها بدلالة قوله تعالى **{ كنتم خير أُمَّة أُخْرِجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله }** [2] .

وإذا كانت منزلتها بين الناس كمنزلة رسوله إليها، بدلالة قوله تعالى **{وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً}**[3] .

إذا كان الأمر كذلك فإنَّ هذه الأُمَّة لا تستطيع أن تقوم بهذا الدور ولا تتحقق لها هذه المنزلة إلاَّ إذا كانت أُمَّة واحدة متحدة [4] .

وقد يسأل سائل : ولِمَ تجب الوحدة لإحقاق الحق وإقامة العدل؟ والجواب على ذلك لأنَّ الأُمَّة بوحدتها تستطيع أن تظهر بالمظهر اللائق بها حيث تكون أُمَّة قوية ذات حضارة رفيعة تتمثَّل فيها مطالب الروح والجسد، ويتحقَّق فيها الأمن والطمأنينة ، فتكون قدوة للناس يرونها فيرون الإسلام حيّاً نابضاً

---

(١) الأنفال : ٧ - ٨
(٢) آل عمران : ١١٠
(٣) البقرة : ١٤٣
(٤) مع الله : ٣٥

بالحياة والحركة، فيقبلون عليه، وهذا هو السر في انتشار الإسلام السريع بتأثير قدوة الفرد وقدوة الأُمَّة (١) .

ومن جهة ثانية فإنَّ الأُمَّة بوحدتها تستطيع أن تقوم بواجب الجهاد الإسلامي – كما قام أسلافهم – وأن ترسل الجيوش – جيوش الحق والعدل – إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، لتحمل للناس الخير، وتهديهم للرشد، وتزيل الطواغيت التي لا تريد للناس خيراً ولا رَشَداً، ولا سعادةً حقيقية (٢) .

ومن هنا كانت شريعة الجهاد في الإسلام على حد قول الشاعر :

إذا لم يكـــن إلاَّ الأسنَّـــة مركباً فما حيلة المضطر إلاَّ ركوبها

فالمسلمون عندما يكونون أُمَّة قوية مرهوبة تستطيع أن تقوم بفريضة الجهاد الذي غايته نشر الإسلام والتمكين لدينه .

" ولقد أرشد الله المسلمين إلى أن يتعاونوا وينهجوا الطريق الأمثل متبعين في ذلك شرع الله وما أمر به ليكون بناؤهم قوياً وصفوفهم متراصَّة، وجهودهم مثمرة، ويوم كانوا واعين لهذه التوجيهات الحكيمة والإرشادات النافعة بلغوا المجد السامق والعز المكين ونشروا لواء الإسلام في أنحاء الدنيا وسادوا أكثر بلاد العالم" (٣) .

وأنَّ المهمة التي أناط الله بها الأُمَّة المسلمة ليست – كما أسلفنا – هي مجرَّد هداية الناس إلى الخير الذي جاء به الإسلام ، وحماية العقيدة الإسلامية وأصحابها ، إنَّما هي أكبر من ذلك وأشمل، إنَّها كذلك حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعاً ، واستبعاد عنصر القوة المادية من ميدان الاعتقاد والعقيدة ، وحماية الضعفاء من الناس من عسف الأقوياء ، ودفع الظلم أيًّا كان موقعه ، وأيّاً كان الواقع عليه ، وكفالة القسط والعدل للبشرية كافَّةً، ومقاومة الشر

---

(١) مع الله : ٢٩٨ ـ ٣٠٠

(٢) القيادة والجندية : ١٤٣ (بتصرُّف) .

(٣) ابن فياض : ١٠٣

والفساد في الأرض بحكم الوصاية الرشيدة التي ناطها الله بهذه الأُمَّة وتحقيقاً لخيرتها ووسطيتها وشهادتها على الناس ، وكذلك نرى أنَّ المهمة التي ناطها الله بالمسلمين والمشاق التي تعترض طريقهم لأداء تلك المهمة تقتضي ذلك التضامن المطلق على أساس الفكرة التي تجمعهم ، وتقوم فيهم مقام الجنس والوطن والدم والنسب ، لأنَّ عليهم واجباً أبعد وأكبر من هذه الصلات كلها مجتمعة .

هنالك عصبية إسلامية إذن ولكنها عصبية على هذا المعنى، وفي تلك الحدود، عصبية التضامن بين المسلمين جميعاً في الإخلاص لفكرة، وعصبية التعاون فيما بينهم على إيصال الخير الذي تحمله هذه الفكرة للناس جميعاً، الخير الذي جرَّبوه في حياتهم الخاصة فانتفعوا به انتفاعاً عظيماً ، إيصاله إلى الناس جميعاً بالدعوة إلى الله بالحسنى [1] . **{ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }** [2] .

وإيصال الخير للناس من شأنه إحقاق الحق وإقامة وإقامة العدل، والمجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يوفر العدالة المطلقة لجميع المواطنين، بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم وألوانهم ومواطنهم، ويبلغ في هذه السمة ما لم يبلغه مجتمع آخر قديماً أو حديثاً ، وعلى هذا المبدأ تتضافر النصوص التشريعية ، ويؤيدها الواقع التاريخي .

يتحدَّث القرآن عن العدل فيقرِّر أنَّه العدل بين الناس **{ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل }** [3] .

ثُمَّ يتحدَّث عن الملابسات التي لا سبيل إلى تجاهلها في المجتمع، ملابسات القرابة والصداقة، وملابسات العداوة والشنآن، فيدعو إلى نفيها من

---

(١) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي ١٠٠
(٢) النحل : ١٢٥
(٣) النساء : ٥٨

ساحة العدالة كي لا تفسدها **{وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى}**[1] **{ولا يجرمنَّكم شنآن قومٍ على ألاَّ تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله}**[2].

فهو العدل المطلق الذي لا يميل، ميزانه الحب والبغض، لا تُغَيِّر قواعده المودَّة والشنآن، العدل الذي لا يتأثَّر بالقرابة بين الأفراد، ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأُمَّة الإسلامية جميعاً، لا يفرِّق بينهم حَسَبٌ ولا نَسَب، ولا مالٌ ولا جاه، كما تتمتَّع به الأقوام الأخرى، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمةٌ في العدل لا يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة، ولا بعد هذه اللحظة، ولا أي قانون داخلي كذلك[3].. شتَّان بين الثرى والثُّرَيَّا ..

فهل يعتصم المسلمون بحبل الله ؟؟! لإحقاق الحق، وإقامة العدل ؟؟!

---

(١) الأنعام : ١٥٢
(٢) المائدة : ٩
(٣) نحو مجتمع إسلامي : ١٢٧ - ١٢٨

المبحث الرابع

عِـــزَّة المؤمنين

إنَّ العزَّة والكرامة من أبرز الخلال التي نادى الإسلام بها ، وغرسها في أنحاء المجتمع ، وتعهد نماءها بما شرع من عقائد ، وسنَّ من تعاليم ، وإليها يشير عمر بن الخطاب ﷺ بقوله : أحب من الرجال إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه : لا .

علام يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم مناديا (الله أكبر) في بداية الأذان ونهايته ؟ ولماذا يتكرر هذا التكبير فيكتنف أفعال الصلاة كلها من قيام وقعود ؟

ذلك لكيما يوقن المسلم يقيناً لا يهتز ولا يزيغ أن كُلَّ متكبر بعد الله فهو صغير، وأنَّ كُلَّ متعاظم بعد الله فهو حقير ، فكأنما وكل إلى هذا النداء أن يرد الناس إلى الصواب كلَّما أطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة.

وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله عزَّ وجلَّ اسمي العظيم والأعلى من أسمائه الحسنى ليكررهما المسلم في أثناء ركوعه وسجوده ، فتشرب روحه إفراد رب العالمين بالعظمة والسمو .

والعزة حق يقابله واجب ، وليس يسوغ لامرئٍ أن يطالب بما له من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب، فإذا كلفت بعملٍ ما فأديته على أصح وجوهه فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع من فوقك ولا من دونك مرتبة أن يعرض لك بلفظٍ جارحٍ، وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك حين تسد الثغرات التي ينفذ إليك منها اللوم والتقريع. إنَّ ألد أعدائك حينئذٍ يتهيبك، قال تعالى **{ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة**

سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنَّما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } [1] .

وارتكاب الآثام سبيل السقوط والإهانة. ومزلقة إلى خزي الفرد والجماعة .

وقد بَيَّن الله أنَّ الهزيمة في غزوة أُحُد سببها ما ارتكبه البعض من مخالفات **{ إنَّ الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان إنَّما استزلَّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنَّ الله غفورٌ حليم }** [2] .

فالإسلام حينما أوصى المسلم بالعزة هداه إلى أسبابها، ويسَّر له وسائلها، وأفهمه أنَّ الكرامة في التقوى وأنَّ السمو في العبادة، وأنَّ العزَّة في طاعة الله، والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به يجب أن يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص في الحياة الرفيعة المجيدة ، فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغٍ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهاداً في سبيل الله ، وليس ذياداً عن الحق الشخصي فقط ، بل إقراراً للحقوق العامة والمثل العالية .

ومن ثَمَّ فإنَّ موت المسلم دون حقه شهادة . جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي – أي اغتصابه – قال : **(لا تعطه مالك)** . قال : أرأيت إنْ قاتلني ؟ قال : **(قاتله)** قال : أرأيت إنْ قتلني ؟ قال: **(فأنت شهيد)** قال : أرأيت إنْ قتلته ؟ قال : **(هو في النار)**[3].

نعم ! فمن عزة المؤمن ألا يكون مستباحاً لكُلِّ طامع ، أو غرضاً لكل مهاجم . بل عليه أن يستميت دون نفسه وعرضه وماله وأهله ودينه ، وإن أريقت في ذلك دماء فإنَّ هذا رخيص لصيانة الشرف الرفيع ، وليبقى المؤمن عزيزاً كريماً :

---

(١) يونس : ٢٦-٢٧

(٢) آل عمران : ١٥٥

(٣) رواه مسلم .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى . حتى يــراق عــلى جوانبـــه الـــدم

وإنَّ اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه هو كبرياء إيمانه ، وكبريا الإيمان غير كبرياء الطغيان ، إنَّها أنفة المؤمن أن يصغر أمام أحد مهما كانت منزلته ، أو يتضع في مكان ، أو يكون ذنباً لإنسان . هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة ، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التطاحن ، فيها الترفع على معنويات الأرض ، ومزاعم الناس ، وأباطيل الحياة ، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معه ، واحترام الحق الذي يجمعه بهم ، فيها إتيان البيوت من أبوابها ، وتحقيق العزة .

{ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذابٌ شديد ومكرُ أولئك هو يبور } [1] .

وقمة العمل الصالح هو وحدة الأمة وعدم تفرقها ، والاعتصام بحبل الله المتين ، ولأنَّ الناس إن لم يجمعهم الحق شيَّعهم الباطل ، وإن لم توحدهم عبادة الرحمن فرَّقتهم عبادة الشيطان ، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا . ولذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة ، وديدن من لا إيمان لهم [2] .

قال رسول الله ﷺ **(لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)** [3] .

يعني أنَّ هذا العراك الدامي شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزاباً متناحرة ، وليس شأن المؤمنين الذين تجمعهم كلمة الله فيصبحوا بنعمة الله إخوانا ، تضمهم أخوة الإيمان فيذوقون بها حلاوته ، لأنَّ هذه الأخوة هي روح الإيمان الحي ، ولباب المشاعر الرفيعة التي يكنها المسلم لإخوانه حتى

---

(١) فاطر : ١٠

(٢) خلق المسلم : للغزالي .

(٣) رواه البخاري .

إنَّه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحةٍ واحدة أو روحٌ واحدٌ حلَّ في أجسادٍ متعددة [1] .

وهذه الأخوة الإيمانية هي التي تحقق وحدة الأمَّة العظمى اقتداءً به ﷺ في إخائه بين المهاجرين وانصار ، وفي دعوته إلى تواد المؤمنين وتعاطفهم وتراحمهم ، ولقد لمسنا آثار ذلك الإخاء في الإيثار والمحبة بين المؤمنين ، وأثنى الله عزَّ وجلَّ عليهم بقوله **{ يحبون مَن هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مِمَّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون }** [2] .

وطالما كان المسلمون أُمَّة واحدة ، فهم مستعدون للتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل المحافظة على بعضهم سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات ، فما اتحد قوم إلاَّ عزوا وسادوا وبنوا وشادوا . وها نحن نرى أهل الباطل يتجمعون حول باطلهم، وأولى بالمؤمنين أصحاب العزة والمنعة، وأهل الخير والعدل، أن يتجمعوا على الحق الذي حباهم الله به، وعلى شكر النعمة التي أتاهم الله إياها، وارتضاها لهم، وهيَ نعمة الإسلام.

إنَّ أعداء الإسلام من شذاذ الآفاق يتكالبــون على الأُمَّة الإسلامية يمزقون لحمها ويدقون عظمها ويسيمون المسلمين سوء العذاب في كثيرٍ من دول العالم الإسلامي والأقليات المسلمة في كثيرٍ من المناطق ، وقد هان المسلمون على أنفسهم حينما غيَّروا ما بهم وتفرَّقوا أيدي سبا .. ولم يلتفتوا إلى قوله ﷺ **(يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.** قالوا : أمِن قِلَّة يا رسول الله ؟ قال : **بل أنتم اليوم كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليلقين في قلوبكم الوَهَن.** قالوا: وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: **حُبّ الدنيا وكراهية الموت)**[3].

---

(1) خلق المسلم : محمد الغزالي ١٧٩
(2) الحشر : ٩
(3) متفق عليه .

وغفل المسلمون عن قوله تعالى **{ وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلونكم كافَّة واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين }** [1] .

إنَّ وحدة الأُمَّة فيها عِزَّة المؤمنين ومجدهم ، وعليهم أن يسلكوا ذلك الدرب وأن يستقيموا على الصراط ليحقِّق الله لهم ما وعدهم به . **{ ولله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكِنَّ المنافقين لا يفقهون }** [2] .

---

(١) التوبـة : ٣٦
(٢) المنافقون : ٨

المبحث الخامس

ازدهار الحضارة في بلاد المسلمين

عرَّف ابن خلدون الحضارة بأنَّها: "أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفة وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر " [١].

كما عرفها غيره بتعريفات قريبة من المعنى الذي ذكره، ونستطيع أن نستنتج من هذه التعريفات معنىً شاملاً فنقول: إنَّ الحضارة هي أن تقطع الأُمَّة أو الدولة شوطاً بعيداً في التقدُّم والرقي الفكري والعقلي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، حتى تحقق للفرد والمجموع حياة أسعد وعيشاً أرغد.. وتزدهر الحضارة إذا اصطبغت بصيغة الله، وكانت على هدي من الكتاب والسُنَّة، فوسمت بالإسلامية ليعيش الناس في ظلالها آمنين مطمئنين أعزَّاء كرماء أحراراً متساويين، يتعاونون على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان، وبذلك ترتقى المدنية وتتقدَّم ، ويسمو الفكر إلى آفاقه العليا .. إبداعاً وإتقاناً [٢].

ذلك لأنَّ الإسلام يقدِّم لأتباعه – بل للبشرية كلها – منهجاً إنسانياً عادلاً رحيماً، وهو أقرب ما يكون للفطرة البشرية وأصدق ما يكون تقبُّلاً من العقل، فضلاً عن جمعه للجانب المادِّي والمعنوي معاً، وهو لم يحتقر الأمور الدنيوية في سبيل الاعتماد على الروحانيات ولم يفعل العكس، وفي نفس الوقت لم يُضَحِّ بالفرد من أجل المجتمع، ولا بالمجتمع من أجل الفرد.

وليس في الإسلام تناقض بين المثل العليا، والواقع العملي للناس، وفيه يلتقي الدين والعلم، وميزة الإسلام أنَّه لم يفرض الحلول مقدَّماً، ولم يطبقها

(١) المقدمة : ٢٠٩

(٢) محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، للباحث .

بالقسر والإكراه، بل كانت تعاليمه متفاعلة دوماً مع طبيعة الفرد ومع بشريته، وكانت وقاية من الأزمات والمشاكل قبل أن تكون حلولاً للأزمات والمشاكل.

ولقد اعترف الإسلام بحقوق الإنسان وميوله وعواطفه، وجعل ضوابطه وحدوده في الأساس مستهدفة عدم استهلاك الإنسان لطاقته الجسدية ، وكانت الدعوة إلى الاعتدال والقصد دون الإسراف الذي يفضي إلى الانهيار، ودون الجحود الذي يؤدي إلى الانحطاط .

وليس في الإسلام سر ولا تناقض، وليس فيه ما يصادم العقل البشري أو الذوق ، ولم يحجر الإسلام على العقل ؛ ولم يجعل له سلطاناً مطلقاً.

والإسلام يخاطب العقل والقلب معاً، ويؤكِّد وحدانية الله، وكرامة الإنسان، وقد أبطل سلطان الوسطاء بين الإنسان وربه، وعلَّم أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش، وحثَّهم على الدنيا والزهد فيها في آنٍ واحدٍ في توازنٍ منضبطٍ لا تفريط فيه ولا إفراط [1] .

ويقرِّر الإسلام مكانة الإنسان في الأرض، ويؤكِّد حق استخلافه وأمانته ومسئوليته الفردية، والتزامه الأخلاقي الذي يستتبع البعث والجزاء، ويؤكِّد الإسلام أهمية الإنسان كفرد وأهميته كفرد في مجتمع، ويؤكِّد حاجته إلى التقدُّم المستمر، ولذلك فهو يحرِّر طاقاته كلها (فكرية، وخلقية، وعملية) لينطلق في سبيل خدمة تقدمه كإنسان، وفي خدمة المجتمع ككل وفق ضوابط خاصَّة، وفي إطار حركته الخالصة لوجه الله تعالى، ووفق المنهج الذي أعطاه الله لعباده عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتمهم محمَّد ﷺ { **فإمَّا يأتينَّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**}[2]. {**فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً فمن اتَّبع هُدَاي فلا يضلُّ ولا يشقى**}[3].

---

(١) أنور الجندي : الموسوعة الإسلامية العربية ٤٣٠/٦ - ٤٣١

(٢) البقرة : ٣٨

(٣) طـه : ١٢٣

وأنَّ الحرية في مفهوم الإسلام هي تحرير العقل البشري من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد، وتحرير الإنسان من قيد العبودية، وسلطان الاستبداد والطغيان .

ومفهوم الأخلاق في الإسلام يقوم على أساس تلك القِيَم الثابتة الراسخة التي أثبتت أجيال البشر جيلاً بعد جيل أنَّها مرتبطةٌ بالإنسان، وليست مرتبطة بالمجتمعات والعصور، وقاعدة الأخلاق الأساسية أنَّ الحقَّ واحد، وأنَّه لا يتعدَّد، وأنَّ أساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشرّ، والحق والباطل، وأنَّ مفهوم الأخلاق في الإسلام يحرِّر الإنسان والمجتمع من عبادة الجسد وتقديس الشهوة وتأليه الباطل .

وحرَّر الإسلام الفكر الإسلامي من مشكلة البحث فيما وراء الطبيعة أو عالم الغيب، فقدم له منهجاً كاملاً يرضي نفسه ويسد حاجته الروحية، وذلك حتى يفرِّغه لمهمَّته في بناء الحياة وتعمير الكون وتحقيق العدل والإخاء الإنساني .

وربط الإسلام بين العقيدة والتطبيق ، وقَرَن القول بالعمل، ورفض مبدأ العلم للعلم، وقرَّر أنَّ العلم إنَّما يطلب من أجل العمل به، والاستفادة منه في تحسين الحياة الإنسانية وتقدمها، وكشف عن أنَّ الطبيعة البشرية مزودة بأمرين مترابطين: قدرة نظرية قادرة على تحصيل العلم، وقدرة عملية قادرة على تقويم العمل ، ولابـــدَّ من الاثنين معاً .

وفرَّق الإسلام بين العلم النافع والعلم الزائد عن الحاجة، ودعا المسلمين إلى أنْ يأخذوا من كُلِّ علمٍ أحسنه ، هذا مع أهمية الاجتهاد، ورفض التقليد، والبحث عن البرهان وقبول الدليل، وتغيير الرأي دون حرج متى تبيَّن أنَّ غيره أصح منه .

وقرَّر الإسلام أنَّ هناك معارف جوهرية ومعارف غير جوهرية، ودعا إلى الاهتمام بالأولى وتجاوز الأخرى، والإسلام لا يرى في مفهوم الإيمان

شيئاً مضاداً لمفهوم المعرفة، ولا يقتصر الإسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة، بل يضيف عليه علم الوحي الذي جعل الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط العلم، والإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس، وتبعث الثقة، ولذلك فإنَّه لا توجد في الأدب الإسلامي ظاهرة التشاؤم والتمزُّق .

وإنَّ الإسلام هو مصدر كيان العرب ووجودهم، فقد جعل الإسلامُ العربَ خَلْقاً جديداً، وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر، وليس على أساس الجنس والعرق، وكان لهم السور المنيع الذي رد عنهم الأعداء وحطَّم الغزاة، ولقد انتقل العرب بالإسلام إلى المجال الدولي، ولذلك فإنَّ موقف العرب من الإسلام يختلف عن موقف القوميات الأوربية من دينها وعقيدتها، والإسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات، داعٍ إلى الأخوة البشرية.

وإنَّ أبرز مفاهيم الإسلام أنَّه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها ولا تفتيتها أو الأخذ بفرعٍ منها دون آخر، فكُلّ عنصر منها متصل بباقي العناصر، مؤثِّر فيها متأثر بها، ومن هنا تكاملت تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية[1].

هذا هو الإسلام الذي ارتضاه الله للناس ديناً **{ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً }**[2]، وعلى نهجه وهديه قامت أعظم حضارة في التاريخ، وازدهرت، وتفيأ المسلمون ظلالها وجنوا ثمارها.

وها هو الإسلام .. يبني المسلمون في ظلاله كما بنى آباؤهم أسمى حضارة تزدهي وتزدهر، وتأخذ بيد البشرية إلى الأمن والأمان والاطمئنان وإقامة العمران على أساسٍ من الدين الحقّ **{إنَّ الدين عند الله الإسلام}**[3]،

(١) أنور الجندي، مرجع سابق ٤٣٧ ، ٤٣٩
(٢) المائدة : ٣
(٣) آل عمران : ١٩

{ومن يبتغ غير الإســـلام ديناً فلن يُقْبَل منه وهو في الآخـــرة من الخاسرين}[1].

وإنَّ المسلمين وحدهم هم الذين يملكون العقيدة الصحيحة التي ينبثق عنها النظام الصحيح الذي يعالج جميع مشاكل الإنسان علاجاً يوافق فطرته، ويطمئن إليه عقله وقلبه، وذلك بسببٍ واضحٍ جداً، وهو أنَّ الإنسان مِنْ خَلْقِ الله، والإسلام مِنْ عِنْدِ الله، فيستحيل عقلاً أنَّ الذي خَلَقَ الإنسان لم يضع له النظام الذي يصلحه في دنياه وأخراه **{ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير}**[2]،**{ فطرة الله الله فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون }** [3] .

فإذا اجتمع المسلمون واتحدت كلمتهم على هذا الإسلام بعقيدته ونظامه، واتخذوه قيادة فكرية، ونظاماً سلوكياً، ومنهجَ حياة كاملاً – كما أراده الله لهم. فإنَّه يجعلهم أُمَّةً واحدةً متعاونةً متراحمةً، مَثَلها كمثل الجسد الواحد، وإذا اتَّحد المسلمون صاروا أُمَّة لها كيانها ووزنها الدولي بين الأُمم، بل صاروا الدولة الأولى في العالم – وقد ظلُّوا كذلك ثلاثة عشر قرناً – فتستطيع أن تبرز ما جاء به الإسلام من مبادئ العدل والإخاء والمساواة والرحمة، وغير ذلك بشكلٍ عمليٍّ جليّ، وإذا سادت مبادئ الإسلام وجه الأرض فقد تقدَّمت الحضارة البشرية تقدُّماً فيه الخير والصلاح وفيه سعادة النفس وطمأنينة القلب[4] .

إنَّ وحدة المسلمين فيها التقدُّم الحضاري للمسلمين وللبشرية كلها ، وذلك أنَّ للحضارة جانبين أساسيين هما :

---

(١) آل عمران : ٨٥
(٢) الملك : ١٤
(٣) الروم : ٣٠
(٤) الإسلام والإدارة .

جانب الفكر والمفاهيم عن هذه الحياة الدنيا وما فيها وصلتها بما قبلها وما بعدها. وجانب المادة وما تنتجه من مخترعات وصناعات وسلع وأدوات.

وقد أقام المسلمون في عهد وحدتهم الحضارة على هذين الأساسين، فآمنوا بأنَّ هذه الدنيا مخلوقة لخالق وهو الله وحده لا شريك له، وعلى الإنسان فيها أن ينظِّم حياته وفق أوامر الله ونواهيه، وأنَّه سيُسْأل عن ذلك في الحياة الأخرى **{ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور }**[(1)]. **{ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثُمَّ توبوا إليه إنَّ ربي قريبٌ مجيب }**[(2)].

{ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في الأرض إنَّ الله لا يُحبُّ المفسدين } [(3)].

وأمَّا المادَّة فقد أيقنوا بأنَّ الله سبحانه خلقها وسخَّرها لهم لينتفعوا بها ويزدادوا راحة وطمأنينة في الدنيا ريثما ينتقلون إلى السعادة الأبدية الخالدة.

وقد استطاع المسلمون عندما كانوا متحدين أن يشيِّدوا حضارة رائعة تعم الناس تحت ظلالها بهدوء النفس والأعصاب ، وبراحة الفكر والضمير. وازدهرت تلك الحضارة وازدهت في مشارق الدنيا ومغاربها على منارات قرطبة وغرناطـــة وأشبيلية، وبخـــارى وسمرقند وبغداد والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ... يرد عليها القاصي والداني وهو ظمآن، وينصرف عنها وهو ريان ..

ولكن – وا أسفاه – عندما تفرَّق المسلمون، ودبَّ دبيب الشيطان بينهم أضاعوا وحدتهم ، فضاع معها حضارتهم المشرقة لأنَّها مبنية على الإيمان بالله وأنَّه سبحانه الخالق المدبر الآمر الناهي .. ثُمَّ ماذا حدث بعد ..؟

---

(١) الملك : ١٥

(٢) هود : ٦١

(٣) القصص : ٧٧

وحدث بعد تفرقة المسلمين وانقسامهم شيعاً وأحزاباً .. أن باضَت وفرَّخت بغاث الطير، وقال القائل :

إنَّ البغاث بأرضنا يستنسر ..

خلا لك الجو فبيضي واصفري .. ونقري ما شئتِ أن تنقري

وظهرت وجوهٌ كالحة ، ومفاهيم فاسدة ، فمن حضارة شرقية شيوعية لا تؤمن بالخالق – عزَّ وجلَّ – ولا بالحياة الآخرة، ولا بسائر الغيبيات والروحانيات ، إلى حضارة غربية رأسمالية تؤمن بخالق ولكنها لا تعترف بأنَّه المدبر المنظِّم لحياة الإنسان . وكِلا الحضارتين لا تقيم وزناً إلاَّ للمادَّة، فهي وحدها المنفعة ، وهي وحدها السعادة (١) .

فنتج عن ذلك التنافس المدمر والحرب الباردة حيناً، والحروب الساخنة أحياناً كثيرة، حتى اكتوى بنارها البشر واصطلى بحرها من أوقدوها، حيث أكلت الأخضر واليابس ، وفي أقل من ثلاثين عاماً اشتعلت حربين عالميتين، فما أنْ وضعت الحرب الأولى أوزارها عام ١٩١٨م حتى كشَّرت الحرب العالمية الثانية عن جرائمها عام ١٩٣٨م .

بيد أنَّ الأمر عندما كان بيد المسلمين الموحدين المتحدين، لم يحدث شيء من ذلك طيلة ثلاثة عشر قرناً .

إنَّ الحضارة الشرقية والغربية بإهمالها جانب الروح عند الإنسان ، وبتقدمها في الجانب المادي فقط ، صارتا مصدر قلق للبشرية (٢) ، ومبعث انزعاج ومشقة للنفس الإنسانية ، وطريق ظلم وتعذيب للشعوب الضعيفة المقهورة ، ولا يعلم الله مدى الدمار والهلاك والخراب والجرائم والعذاب الذي سيلحق بالبشرية كلها فيما إذا قامت حرب عالمية ثالثة – لا قدَّر الله .

إنَّ وحدة المسلمين القائمة على أمر هذا الدين هي الطريق الوحيد الذي يخلصهم ، ويخلص البشرية كلها ممَّا هي فيه من توتُّر وقلق ، وهي وحدها

---

(١) عالمية الدعوة : ١٣ - ١٤

(٢) نحو مجتمع إسلامي ١٢ ، الحل الإسلامي ١٢٣

دون سواها طريق النهضة والتقدُّم والرقي نحو حضارة إنسانية سعيدة لأنَّها تجمع بين أمور الدين والدنيا، وتوازن بين النواحي الروحية والنواحي المادية(١) .

ويستطيع المسلمون – بتأييد الله لهم وتأليف قلوبهم – أن يتجمَّعوا حول هذا الدين من جديد ، وذلك بالتعاون على البرِّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، وبالإيثار لا الأثرة، وبالتكامل الاقتصادي في كُلِّ مجالات الحياة بحيث تضم الوحدة أجزاء الأُمَّة وأعضاءها ، فيصيرون كالجسد الواحد، ومن فضل الله تعالى على الأُمَّة الإسلامية أن منحها الله أسباب القوة المادية كما منحها أسباب القوة المعنوية التي تأسست عليها، فمجموع أجزاء الأمة الواحدة هو مجموع ما يحتاجه من أسباب التقدُّم الماديِّ فيما يخرج من الأرض أو ينزل من السماء، وما يُصنَّع بأيدي أفرادها وما يُستَهْلَك في أسواقها.

بالإضافة إلى التكامل الثقافي حول هدي الكتاب والسُّنَّة ولغة القرآن الكريم ... وبجانب ذلك تكاملهم العسكري والذي لا يقل أهميةً عن الجوانب الأخرى، وذلك عن طريق إعداد القوة كما أمرهم ربهم لإرهاب عدو الله وعدوهم، وإقامة العدل بين الناس جميعاً وتحقيق الخير فيهم. **{ ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر مَنْ يشاء وهو العزيز الرحيم }** (٢) .

وتبدو معالم الأُمَّة الإسلامية المميزة لها ، وتظهر شخصيتها ، وتسمو مكانتها المهيبة بين الأمم ، وترفرف راياتها خفاقة عالية علو وظيفتها التي أرشدها إليها ربها في قوله عزَّ وجلَّ **{ كنتم خير أُمَّةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله }** (٣) .

ويتحقق ذلك كله – إن شاء الله – إذا استجاب المسلمون لأمره تعالى **{يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم**

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٠ - ١١
(٢) الروم : ٥
(٣) آل عمران : ١١٠

تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير}(١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على البشير النذير والسراج المنير، ورحمة الله للعالمين، خاتم النبيين والمرسلين، سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه وتابعيهم ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{ وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب } (٢) .

---

(١) الحج : ٧٧ - ٧٨

(٢) هود : ٨٨

الخاتمـــة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعـــد :

فهذا موضوع " **الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة**" وتلك لمحة عمًّا حواه بعد أن بسطناه ، فرُبَّ إشارة تغني عن عبارة ، وتلميح عن تصريح ، والبلاغة الإيجاز ..

ففي التمهيد : تحدَّثت عن معنى الوحدة ومشروعيتها وحكمها، مستنبطاً ذلك من آيات كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وسُنَّة رسوله ﷺ وسُنَّة الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم – وسيرة السَّلَف الصَّالح – رحمهم الله تعالى – موضّحاً دلالة هذه الآيات وتلك الأحاديث، مبرزاً مواطن الأسوة والقدوة، مستخلصاً فرضية هذه الوحدة ، حيث أمر الله عزَّ وجلَّ بها في أكثر من آية وبَيَّن ذلك رسول الله ﷺ – حيث نهى عن الفُرْقَة والاختلاف والتنازع، وتوعَّد الذين تفرَّقوا واختلفوا بالعذاب الأليم ((**وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب**))، لأنَّ في الوحدة تمكين لدين الله في الأرض وإقامة له وإعزاز لكلمته، ونصر له ، ولخير أُمَّة أُخرجت للناس .

وفي الفصل الأول : فقد بيَّنت عوامل الوحدة ممثلة في العقيدة الصحيحة ، عقيدة التوحيد الخالص ، والعبادات الصحيحة ، الغاية والهدف ، حيث إنَّ عقيدة التوحيد الخالص هي الأساس المتين لبناء هذه الوحدة القويمة ، فالله واحد لا شريك له ، وهو رب العالمين ، والكتاب واحد ، والتوجه لله وحده ، والغاية إسلام الوجه والقلب والإرادة ، وإخلاص العمل لله رب العالمين ، وما

الوحدة إلاَّ الاعتصام بحبل الله .. والإيمان تصديق بالقلب، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح .

والعبادات في الإسلام مظهر لذلك الإيمان ، شرعها الله لعباده يقيمونها ويؤدونها ، خالصة لله وحده **{ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين }**[1]، مستشعرين الأخوة بين المؤمنين ، والتراحم والتواد والتعاطف فتثمر العبادات – بإذن الله – ثمراتها اليانعة ، فيصير المؤمن لأخيه كالجسد الواحد ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وهذه الثمرات الطيبات قطوف دانيات من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، والحج على الوجه الذي أمر به الله، وطبَّقه رسوله ﷺ ومَن اتبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين .

إنَّ رابطة الإيمان وأداء الشعائر في الإسلام توحي المسلمين بالوحدة والتضامن وحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، والاجتماع على كلمةٍ سواء ، واستشعار المسئولية بالأخوة والإيثار وتجاوب المشاعر والأحاسيس والاهتمام بأمر المسلمين حيثما وجدوا وأينما كانوا ، وما ذاك إلاَّ الوحدة ، في ظلال الاعتصام بحبل الله المتين ، ونهج صراطه المستقيم بالاتفاق على أصول التلقي .

أمَّا الفصل الثاني : فقد عالجتُ فيه معنى التفرُّق والاختلاف، وما يجوز فيه الاختلاف وما لا يجوز، ثُمَّ ذكرت أسباب الاختلاف والتفرُّق ومنها اتباع الهوى والعوائد والجهل، والبعد عن الدين الصحيح والعصبية الجاهلية والدعوة إلى القومية أو غيرها من الدعوات الهدَّامة، كيد أعداء الإسلام.

وفي الفصل الثالث : تحدَّثت عن أثر الوحدة في مواجهة التحديات المعاصرة، وما يترتَّب على إقامتها من القوة في كُلِّ مجالاتها، والنصرة تمكيناً لدين الله في الأرض، وإحقاق الحق وإقامة العدل، وعزة المؤمنين وازدهار الحضارة في بلاد المسلمين التي حباها الله كُلَّ الخير في ظاهرها

---

(١) الفاتحة : ٥

وفي باطنها، وذلك عن طريق تآلفهم وتحابهم وتوادّهم في الله ولله، وتكاملهم الاقتصادي وتضامنهم السياسي ورقيهم الثقافي والاجتماعي، وهكذا يتحقّق قوله تعالى **{وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً}**(1).

ويعلم الله مدى الجهد الذي بذلته في إعداد هذا البحث ، حيث لم يسبق لأحد من العلماء – حسب علمي – أنْ خاض الكتابة في بحر هذا الموضوع المتلاطم الأمواج – على هذا النحو وتحت هذا العنوان – " **الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة** " ولهذا كان لزاماً عليَّ أن أغوص في أعماق بحور العلم بحثاً عن اللؤلؤ المكنون ، أجمع ما تفرَّق من دره المنثور ، فأصوغه عِقْداً منظوماً أُحلِّي به جيد وحدة الأُمة الإسلامية ، خير أُمَّة أُخرِجَت للناس ..

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويرزقنا حسن الخاتمة ..

{ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين } (2) .

{ سبحان ربك رب العزة عمَّا يصفون * وسلامٌ على المرسلين * والحمد لله رب العالمين } (3).

---

(1) البقرة : ١٤٣
(2) البقرة : ٢٨٦
(3) الصَّافَّات : ١٨٠ - ١٨٢

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم والسُنَّة النبوية الشريفة .

ثانياً :

- إتمام المنة والنعمة بذم اختلاف الأُمَّة : عبد الرحمن حسن آل الشيخ، دار البراء.
- الأحكام السلطانية: لأبي يعلى الفراء، ط. الأولى، مصر ١٣٥٦هـ.
- الأحكام السلطانية: للماوردي، ط. الثانية، مصر ١٣٥٦هـ.
- الأركان الأربعة : للندوي .
- الإسلام والإدارة: د. محمد البهي، ط. الأولى، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- الإسلام وأوضاعنا السياسية : عبد القادر عودة ، ١٣٨٦م .
- الإسلام والخلافة في العصر الحديث : د. محمد ضياء الدين الريس، بيروت ١٩٩٣م .
- الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت .
- الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة : أنور الجندي ، ١٣٩٩هـ .
- إسلامنا : السيد سابق .
- أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان، مكتبة المنار الإسلامية، بغداد ١٣٩٦هـ
- أضواء البيان : محمد الأمين الشنقيطي .
- الاعتصام : للشاطبي ، دار ابن عثمان .
- إعلام الموقعين : لابن القيم ، دار الجيل .
- الافتراق : د . ناصر العقل ، دار المسلم .
- اقتضاء الصراط المستقيم : تحقيق د . ناص العقل .
- الأمة والعوامل المكونة لها : محمد المبارك، دار الفكر، دمشق.

- البداية والنهاية : لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٧٨م.
- بحوث حول التضامن والوحدة في ضوء القرآن والسنة : نوقشت في المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٣-١٤٠٤ هـ، لنخبة من العلماء .
- التبشير والاستعمار في البلاد العربية : مصطفى الخالدي، وعمر فروخ، بيروت ١٩٧٣ م .
- تذكرة الدعاة : البهي الخولي، ط. الخامسة، دار القلم ١٣٩٧ هـ.
- جامع البيان .
- تفسير القرطبي : دار الشعب ، مصر .
- تفسير ابن كثير : دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ .
- تفسير المنار : محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط. الثانية .
- تاج العروس : للزبيدي ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- تاريخ ابن خلدون : بيروت ، ط. الثالثة .
- تاريخ الخلفاء : للسيوطي، السعادة، ط. الثانية، مصر ١٣٧١هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ابن سعدي .
- جند الله – ثقافةً وأخلاقاً : سعيد حوى ، ١٣٩١ هـ .
- حجة الله البالغة : الدهلوي .
- الحل الإسلامي فريضة وضرورة: د. يوسف القرضاوي، وهبة ١٣٩٤هـ
- الخصائص العامة للإسلام : د. يوسف القرضاوي ، وهبة ، ١٩٨٦م .
- الخلافة والخلفاء الراشدون – أبو بكر الصديق ﷺ :- د. محمد عبد العليم العدوي سعيد بطنطا .
الدعوة الإسلامية : صادق أمين ، ١٩٧٨ م .
- الدعوة إلى الإسلام : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .

- دولة الإسلام في الأندلس : محمد عبد الله عنان ، ١٣٨٩هـ .
- الدين : د . محمد عبد الله دراز .
- ذم الفرقة والاختلاف في الكتاب والسنة : الغنيمان، مكتبة لينة .
- الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً : د. محمد عبد العليم العدوي، دار الأنصار، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- روح المعاني : للألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- روضة الناظر : لابن قدامة ، شرح محمد الأمين الشنقيطي .
- رياض الصالحين : للنووي .
- زاد المعاد : لابن القيم .
- سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد : للصالحي، دار الكتب العلمية بيروت .
- سلسلة الأحاديث الضعيفة : للألباني، المكتب الإسلامي، ط. الثانية.
- سنن الترمذي : الفجالة ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- سنن أبي داود : الحلبي ، القاهرة ١٣٧١هـ .
- سنن ابن ماجه : إحياء التراث العربي .
- السياسة الشرعية : لابن تيمية ، ١٣٩٧هـ ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- السيرة النبوية لابن كثير : دار الفكر ، بيروت
- سيرة ابن هشام : مكتبة الجمهورية ، مصر .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف والتفرق المذموم: د. يوسف القرضاوي، دار الصحوة .
- صحيح البخاري مع شرح الباري : لابن حجر العسقلاني، ط. السلفية.
- صحيح مسلم مع شرح النووي: دار الفكر ، بيروت .

- الطبقات الكبرى : لابن سعد، دار صادر، بيروت .
- الطحاوية : لابن أبي العز الحنفي، ١٣٨٢ هـ، القاهرة .
-طريق الدعوة في ظلال القرآن: جمع وإعداد أحمد فايز، بيروت، ١٤٠١هـ
- العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر : د . محمد عبد العليم العدوي، سعيد بطنطا ١٩٨٥ م .
- عالمية الدعوة الإسلامية : علي عبد الحليم محمود ، دار عكاظ، ١٣٩٩هـ
- العبادة في الإسلام : د . يوسف القرضاوي .
- العبودية : لابن تيمية .
- فتح القدير : للشوكاني ، نشر محفوظ العلي ، بيروت .
- في ظلال القرآن : سيد قطب ، ط . الثانية ، مصر .
- قضية العودة إلى الإسلام في الدولة والمجتمع : د. جمال الدين محمود، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، القاهرة .
- القيادة والجندية: د. محمد السيد الوكيل، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٠هـ
- لسان العرب: لابن منظور، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية .
- محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية : د. محمد عبد العليم العدوي، كلية اللغة العربية بالمنصورة ، جامعة الأزهر .
- مدارج السالكين : لابن القيم .
- مسند الإمام أحمد .
- مع الله : محمد الغزالي .
- المغني : لابن قدامة .
- المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.
- الملل والنحل : للشهرستاني .

- منهاج السنة : لابن تيمية .
- منهج التربية الإسلامية : محمد قطب .
- منهج القرآن في التربية : محمد شديد .
- الموافقات : للشاطبي .
- نحو مجتمع إسلامي : سيد قطب، دار الشروق، ط . الثانية ١٤٠٨هـ.
- نزهة النظر : لابن حجر .
- نظام الإسلام – العقيدة والعبادة: محمد المبارك، دار الشروق جده ١٩٩٦م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر : لابن الأثير، أنصار السنَّة المحمدية.
- نيل الأوطار : للشوكاني .
- الهوى وأثره في الخلاف : الغنيمان ، دار الوطن .
- وجوب لزوم الجماعة : جمال بادي ، دار الوطن .
- الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية: محمد رشيد رضا، دار المنار، ١٣٦٧هـ
- الوحدة الإسلامية : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، ط. الثانية، ١٩٧٧م .
- الوحدة الإسلامية وأثرها في الدعوة إلى الله : لصدقي شريف كتانه، بحث مكمل للماجستير في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة جامعة الإمام، تحت إشرافي ، ١٤٠٢ / ١٤٠٣هـ



فهرس الموضوعات



تمّ بحمد الله
وحسن توفيقه